فلسفة الدعاء عند الصوفية

أحمد إدريس الطعان

أستاذ مشارك

جامعة دمشق – كلية الشريعة – قسم العقائد والأديان سابقاً

Taan1973@gmail.com

فلسفة الدعاء عند الصوفية

ملخص البحث

يتناول هذا البحث سؤال الدعاء عند أهل التصوف من حيث: حقيقة الدعاء، وأهميته، وكيف يفهمه الصوفية، وعلاقة الدعاء بالإيمان بشكل عام.

ومن خلال فلسفتهم الخاصة لفهم الدعاء يمكن للإنسان أن يجد إجابات مريحة للشبهات التي يثيرها المشككون حول الدعاء من حيث إجابته، والفائدة منه، وكيف يتعاطى المكلَّف مع الدعاء في أحواله المختلفة؟ وما هو موقفه –كعبد لله عز وجل– من رؤيته لإجابة الدعاء عاجلاً، أو عدم رؤيته لذلك ؟!

ينطلق الصوفية في فلسفتهم هذه من خلال مسألة جوهرية هي الأساس لكل المسائل الأخرى وهي حقيقة الإنسان، وهويته، وجوهر هذه الهوية، وحقيقة هذه الحياة الدنيا، والغاية منها، ووظيفة الإنسان فيها، فإذا فهم الإنسان ذلك على وجهه الصحيح فإن القضايا الأخرى كلها تصبح فروع يَسهلُ فهمها على العقل، ويبقى الجانب القلبي الذي يحتاج دائماً إلى متابعة ومراقبة ومعالجة لكي لا يغفل عن الغاية الكبرى والمغزى الأساسي لوجوده فيضل في متاهات السبل المتعرجة .

لذا فإن الصوفية يرون أن معالجة أي شبهات تتعلق بالإيمان والدعاء تُعالج بطريقين : الأول: الفهم عن الله عز وجل الذي يُقنع العقلَ ويُريحه، والثاني: العمل الذي يصقل القلب والروح بالمعرفة الوجدانية، ويخلصه من الشرود والغفلة، ويشده دائماً إلى بارئه وخالقه سبحانه وتعالى .

كلمات مفتاحية : الدعاء، الطلب، الإجابة، الصوفية، الفلسفة، العبودية.

The philosophy of supplication in Sufism

Research Summary

This research deals with the question of supplication among the people of Sufism in terms of: the truth of supplication, its importance, how Sufis understand it, and the relationship of supplication to faith in general.

It is through their own philosophy of understanding supplication that a person can find comfortable answers to the doubts raised by skeptics about supplication in terms of its answer, the benefit of it, and how does the appointed person deal with the supplication in its different situations? And what is his position - as a servant of God Almighty - regarding his seeing the supplication answered sooner, or his failure to see that!?

Sufism sparks in their philosophy through an fundamental issue that is the basis for all other issues, which are the reality of the human being, his identity, the essence of this identity, the reality of this worldly life, its purpose, and the position of man in it. If a person understands this correctly, then all the other issues become branches that are easy to understand for the mind, and the heart remains, which always needs to be monitored, monitored and addressed in order not to lose sight of the greater purpose and the main significance of his existence, so he gets lost in the labyrinths of the dusty paths.

Thus, Sufis believe that dealing with any suspicions related to faith and supplication is dealt with in two ways: the first is the understanding of God Almighty who persuades the mind and relaxes it, and the second: the work that polishes the heart and soul with emotional knowledge, saves it from distraction and negligence, and always draws it to His Creator and Creator Almighty.

Key words: supplication, request, answer, Sufism, philosophy, slavery.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أكرمنا بنور الهداية، وأخرجنا من ظلمات الغواية، وجعل لنا في كل شيءٍ آية، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأمّيّ وعلى آله وصحبه صلاة وسلاماً دائمين بلا نهاية وبعد:

فالدعاء مظهر من مظاهر العبادة لله عز وجل في كل الأديان، وهو تعبير عن خضوع الإنسان واستسلامه المطلق لخالقه عز وجل، كما أنه تعبير عن العجز والضعف في مواجهة معترك الحياة، فبه يستمد الإنسان قوته من ربه عز وجل، ويطلب منه العون والقوة، وهذا معنى قولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها كنز من كنوز الجنة(١) .

وقد تَفَنَّنَ الإسلامُ في صِيَغِ الدعاء والتضرُّع واللجوء إلى الله عز وجل في مختلف الأشكال والمواقف والأحوال، فلكل حال مقال، ولكل زمان دعاء، ولكل موقف أو حركة أو سكنة ذكر أو دعاء، فهناك أدعية في الصباح والمساء، وأدعية في السجود والركوع، وأدعية في حال الخوف أو الأمن، وأدعية في حال الشدة أو الرخاء، وأدعية في حال القوة والضعف، وأدعية في حال المشي أو الركوب، وأدعية في حال السفر والوصول، وأدعية في حال الخروج أو الدخول، وأدعية في حال المرض أو العافية، وأدعية في حال الرضا أو الغضب وهكذا .. وما ذلك إلا لأهمية الدعاء في حياة الإنسان؛ ليبقى القلب معلَّقاً بخالقه، لأن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها تلاوة القرآن، وذكر الله تعالى(٢)، وليبقى اللسان رطبًا بذكر الله عز وجل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين أوصى أحد أصحابه بقوله: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله (٣).

وقد أردت في هذه البحث أن أركز الحديث في التجربة الصوفية لفهم الدعاء، فما هو الدعاء عند أهل التصوف؟ وكيف يفهمونه وكيف يمارسونه ؟ وما هي الجذور التي ينطلقون منها لهذا الفهم ولهذه

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ٢٠٧٦)٤٤ – (٢٧٠٤) . ،محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ت:) ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٤٢٢هـ، (٥/ ١٣٣)٤٢٠٥، وصحيح مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) شعب الإيمان (٣/ ٣٩٢)١٨٥٩ – أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي ت: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ، ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٣) سنن البيهقي الكبرى (٣/ ٣٧١) ٦٣١٨ ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

الممارسة ؟ وما هي أسبابه؟ وما هي آثاره ؟ وما هي نتائجه التي يطمحون إليها ؟ وكيف يمكن أن نوظف هذه التجربة في الرد على الإشكالات والشبهات التي يثيرها المشككون حول الدعاء ؟

هذه هي أسئلة البحث التي سيسعى للإجابة عليها، وقد سلكت في هذا البحث منهجاً استقرائياً وصفياً استنتاجياً، حاولت من خلال ذلك أن أوجه الأنظار إلى شكل جديد من أشكال الرد على الشبهات لا يقتصر فقط على الرد العقلي والجدلي السجالي الذي نجده في المنهج الكلامي والفلسفي المحض، بل ينتهج منهجاً جديداً قائماً الممارسة الروحية والعملية المستندة على طبيعة الإنسان وعلاقته مع الخالق والكون والحياة، إنها تجربة ذوقية تقوم على التجربة المباشرة، والمعايشة الوجودية .

ولم أجد في الدراسات السابقة بحثاً يتناول فلسفة الدعاء عند الصوفية بشكل مستقل، ويعرض لذلك في سياق الرد على الشبهات والإشكالات التي يطرحها المتشككون في الإيمان والدعاء، وقد وجدت ما يلي :

١- البعد الصوفي والفلسفي للدعاء بين الإمامين أبي حامد الغزالي وصدر الدين القونوي، دراسة تحليلية مقارنة، للباحث: أحمد إسماعيل السيد أحمد منصور، رسالة ماجستير – جامعة المنصورة، كلية الآداب، قسم الفلسفة، مصر، ١٤٤٠ هـ ٢٠١٩ م . وهذه دراسة اقتصرت على الشخصيتين المذكورتين في العنوان وهما شخصيتان لم أعرض لها في بحثي هذا .

٢- الدعاء في النثر الصوفي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، دراسة فنية، للباحث محمد مهدي مشكور، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، كلية التربية، قسم اللغة العربية، ١٤٣٣ هـ ٢٠١٢ م ، العراق . وهذه الرسالة تناولت الدعاء عند الصوفية في الجانب اللغوي والفني .

٣- بلاغة الدعاء في نماذج من الخطاب الصوفي، رسالة دكتوراه للباحث عبد المؤمن زيطان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، ١٤٣٩ هـ ٢٠١٨ م. وهذه الرسالة اعتنت بالجوانب البلاغية والتربوية في الأدبيات الصوفية .

وقد كان هدف البحث هو تسليط الضوء على أهمية التجربة الصوفية كتجربة عملية ذوقية في معالجة الشكوك التي تعترض الإيمان بالدعاء وأهميته، وعلاقة ذلك بالإيمان بالله عز وجل، بعيداً عن غمار الجدل المحض والفلسفة المجردة .

وقد جاءت خطة البحث في مقدمة وستة مباحث وخاتمة، كما يلي :

المبحث الأول: الإنسان والكون بين العجز والشك، وفيه ثلاث فقرات :

أولاً: الإنسان العاجز الضعيف . ثانياً: الإنسان الشاك المتمرد. ثالثاً: سبيل الحقيقة .

المبحث الثاني : معنى الدعاء بين الذلة والاضطرار والعز والاختيار، وفيه ثلاث فقرات :

أولاً: معنى الدعاء. ثانياً: الإنسان بين الأمانة والعبودية. ثالثاً: الروح السامية والمطالب العالية.

المبحث الثالث: فلسفة المنع والعطاء عند الصوفية، وفيه ثمان فقرات :

أولاً: ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك. ثانياً: أساس الراحة الفهم. ثالثاً: إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه. رابعاً: الرضا في المنع والعطاء والبلاء والرخاء. خامساً: الخوف والرجاء بين المنع والعطاء. سادساً: العطاء من الخلق حرمان ومن الله عز وجل إحسان. سابعاً: يُشهدك الباري برَّه في عطائه وقهره في منعه. ثامناً: الطفولة والرجولة بين المنع والعطاء.

المبحث الرابع: فلسفة الطلب عند الصوفية، وفيه ثمان فقرات :

أولاً: متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك. ثانياً: خير ما تطلبه منه ما هو طاله منك. ثالثا: الأدب قبل الطلب. رابعاً: الاضطرار والافتقار. خامساً: حين يكون الطلب عبودية وحين يكون دنيوية. سادساً: ما تطلبه بنفسك وما تطلبه بربك. سابعاً: علامات الطلب بالله والطلب بالنفس. ثامناً: الكريم لا تتخطاه الآمال .

المبحث الخامس: فلسفة السكوت عند الصوفية، وفيه أربع فقرات :

أولاً: هل الأفضل الدعاء أم السكوت؟ ثانياً: ربما دلهم الأدب على ترك الطلب. ثالثاً: لا توجه قلبك إلا إليه. رابعاً: العناية القديمة والطلب الحادث.

المبحث السادس: مفهوم الإجابة عند الصوفية، وفيه ست فقرات:

أولاً: الإجابة والمشيئة. ثانياً: لا تيأس ولا تعجل. ثالثاً: عالج الشك باليقين. رابعاً: العطاءات المُعجَّلة التي لا يشعر بها العبد. خامساً: أزل الأغيار لتشرق الأنوار. سادساً: دعاء الحال أفضل من دعاء المقال.

الخاتمة والتوصيات .

المبحث الأول

الإنسان والكون بين العجز والشك

أولاً– الإنسان العاجز الضعيف :

إن الإنسان بطبيعة الحال ضعيف عاجز أمام الحوادث في هذا الكون العريض، فهو عاجز أمام الأمراض، عاجز أمام الكوارث، عاجز أمام الموت، ويظهر ضعفه – مهما كان متجبراً – بشكل جَلِيٍّ حين يقع في ضيق وكَرْبٍ فيجد نفسَه مستسلماً لخالقه، ومرتمياً بين يديه متضرعاً متذللاً خاشعاً رافعاً يديه إلى السماء، راجياً رحمة ربه، مستجيراً من عذابه، وقد وصف الباري عز وجل حالة الإنسان هذه في آيات عديدة؛ لِيُذكِّرَه بهويته التي يغفل عنها الإنسان في حالة رخائه وقوته وعافيته، إنها عبوديته لله عز وجل التي لا يمكنه الانفكاكَ عنها اختياراً أو اضطراراً، قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ٢٢ -٢٣] . وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال عز وجل : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

هذه طبيعة الإنسان يتحدث عنها القرآن الكريم بكل وضوح، والإنسان لا يتنكر لذلك، وهو يعلم هذه الحقيقة من نفسه حق العلم، حتى عتاة الفراعنة والجبابرة والملاحدة إذا ما وقعوا في مأزق وشعروا بالخطر نسوا كبرياءهم، وقالوا: يا رب (٤)، وهذا كبيرهم فرعون حين أدركه الغرق يصف لنا الباري عز وجل حالته حين واجه الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس : ٩٠ – ٩١]

ثانياً – الإنسان الشاك المتمرد :

إلا أن الإنسان سرعان ما ينسى، وخصوصاً حين يكون في حال من القوة والغنى،﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[العلق : ٦-٧]، فيتعالى ويتكبر ويطغى ويتجبر، ويظن أنه لن يرجع إلى ربه، وأن الحال سيدوم له كما يريد ويشتهي، حتى تُفاجئَه المنايا والخطوبُ، وترمي به في الحفرة التي لا مفرَّ منها.

وفي سكرة الغنى والطغيان يبدأ الإنسان بالإعلان عن شكوكه في حكمة الله عز وجل ورحمته، بل ووجوده متذرعاً بما يراه من شرور وآلام وكوارث عظام، ويبدأ بالبحث عن الفلسفات التي تبرر له عنجهيتَه

---

(٤) أمثلة معاصرة لبعض المتكبرين والمتغطرسين ...

وكبرَه، أو ضعفَه وذِلتَّه، ويسعى جاهداً أن يتخلص من عبء الشعور بالتكليف، ومسؤولية العبودية، فيعمد إلى طمس هويته، أو تأويلها في محاولةٍ منه لإبراء ذمته، وإراحة عقله، وهو ما لا يمكن حصوله من هذا السبيل .

وقد ألحد بعض الناس لأنه -بحسب ظنه- لا يرى أثراً للدعاء في الحياة، يقول أحدهم " أإلى الله المشتكى؟! والله لا يطعم جائعاً، ولا يرحم مظلوماً، ولا يشفي مريضاً ... إن الصالحين أحق بالإجابة منا، ومع ذلك فهو لا يستجيب لهم، فما قولك بالطالحين؟ هذا إن صح وجوده؟! فكيف إذا كان عدم وجوده حقاً مبيناً؟"(٥) وقد أعلن المؤلف في كتابه هذا رحلته من الإيمان إلى الشك، معارضاً كتاباً للدكتور مصطفى محمود بعنوان[رحلتي من الشك إلى الإيمان].(٦)

" وكم تجددت الدموعُ، وكم تجدد الدعاءُ والابتهالُ، بل لقد لاحظت بعد هذه الأدعية والابتهالات- ويا لهول ما لاحظت- أن الله يستجيب بالمقلوب، فلعله سبحانه لا يفهم العربية جيداً "(٧)، تعالى الله عز وجل عن قوله علواً كبيراً .

ويقول : " لقد كانوا - الناس — يهتفون ويضرعون ويبكون متقدمين بكل طلباتهم واحتياجاتهم ومناشداتهم وأحزانهم وآمالهم واقتناعهم وحبهم وخوفهم وصدقهم إلى الإله بكل اللغات، بأساليب ومَذَلاَّت ترق لها الصخور، وترق لها الأبالسة، وتخجل منها ... ولكنه سبحانه وتعالى لم يكن يستجيب لأحد، أو يرق لأحد، أو يخجل لأحد، أو يخجل من أحد، لقد كانت جميع دعوات البشر ومطالبهم الضارعة الباكية تسقط تحت قدميه ... لقد كانت جميع تضرعات البشر ودعواتهم ومطالباتهم تموت تحت قدمي الإله وصمته دون رثاء" (٨).

إنهم يتعاملون مع الباري عز وجل كما يتعاملون مع البشر، على أنه يتأثر بالمواقف الآنية، وأنه سبحانه تستفزه أفعال وجرائم البشر، فيريدون منه سبحانه أن يتأثر كتأثرهم، ويغضب كغضبهم، ويُستفزَّ كما يُستفزُّون، ويحزن كما يحزنون، وينتقم كما ينتقمون، لو كان الأمر كذلك لما خلق الدنيا والآخرة، ولما خلق الشر في العالم، ولما خلق الابتلاء والنار والعذاب والآلام، ولما خلق المجرمين والشياطين والفراعنة والمتكبرين!. لكنه سبحانه أراد أن تكونَ هذه الدارُ دارَ امتحانٍ وابتلاء، والآخرةُ هي دار الجزاء، لكن الناس لعجلتهم يريدون منه أن يستعجل، فيعذبَ المجرمينَ وينصف المظلومينَ، وقد نسوا أن الله سبحانه ليس في زمان، ولا مكان، وأن الزمان بالنسبة لنا نحن البشر، أما بالنسبة له سبحانه فلا زمان، ولا مستقبل، ولا ماضي، ولا

---

(٥) محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، طبعة تجريبية أولى دمنهور، مصر د.ن ، ص ١٠ .

(٦) السابق ص ١١ .

(٧) السابق ص ٢٥ .

(٨) يكذبون لكي يروا الإله جميلاً ، عبد الله القصيمي ص ٤٠ .

حاضر ... وجوده سبحانه كمال مطلق، ويكفينا نحن البشر أدلة وجوده المبثوثة في الكون، وأدلة عظمته، وحكمته، وجبروته، ورحمته، لتدلنا على عدله المطلق في دار الجزاء، التي سنصير إليها أجمعين .

مثال ذلك: ما يحصل في سوريا من جرائم يشيب لها الولدان من قتل وتدمير وإحراق للرجال والنساء والأطفال وتدميرٍ للبيوت فوق رؤوس أهلها، وتعذيبٍ في المعتقلات للأحرار بكل أصناف التعذيب بشكل لا يتخيله بشر وأمثال ذلك في التاريخ المعاصر والقديم، نحن البشر نتألم لذلك، وتحترق قلوبنا من الحزن ونتساءل علناً أو سراً أين الله؟ لمَ لمْ ينتقم سبحانه وتعالى؟ لكن لو تأملنا قليلاً لعَلِمْنا أن الله عز وجل خلق القتلة والمجرمين منذ الأزل، وهو يعلم هذه الجرائم منذ الأزل، يعني ليس علمه بالجريمة حادثاً كعلمنا، فيتأثر بها كما نحن تأثراً حادثاً عرضياً، هو يرى الجريمة قبل أن نكون، وقبل أن يكون المجرم وتكون الضحية، ولكنه سبحانه جعل ذلك ابتلاء لعباده، واختباراً لهم لحكمة يعلمها سبحانه .

لا يصح أن نقيس الباري سبحانه وتعالى على أنفسنا، وعواطفنا، ومشاعرنا، وأحزاننا، ونطلب منه سبحانه أن يتصرف ويفعل كما نريد ونرغب، فالله عز وجل منزه عن العواطف والمشاعر والأحزان والغضب والحزن والانتقام المشابه لما لدى المخلوقات .

وذهب آخرون إلى أن الدعاء ليس إلا تعبيراً عن حالة العجز والضعف الإنساني، فلا توجد ذات حقيقية خارج الإنسان يمكنها أن تستجيب للإنسان، أو تحس بأوجاعه وآلامه، لكن الإنسان هو يخلق هذه الذات؛ ليبثها مكنون شكواه وأحزانه " ولما كان الإنسان الواقعي غير مشبع الحاجات، وغير مستجاب الرغبات، وإمكانياته الفعلية لا تؤهله لتحقيق ما ينقصه، فإنه يلجأ إلى الدعاء كوسيلة للتعبير عما يتمنى، تفريجاً للنفس، وتحقيقاً لما يريد، حتى ولو على مستوى الكلام، فأصبح الدعاء الديني جزءاً رئيسياً من الخطاب الديني، وهو أكبر كتاب في البخاري، هو حيلة العاجز، الكلام تعويض عن الفعل، وحركة اللسان تعويض عن حركة البدن، بل تكونت حلقات لهذا السبب عند الصوفية للأدعية... وكلما اشتدت الأزمات، ونقصت الحاجات، وعجز التحقيق الفعلي للأمنيات والرغبات اشتد الدعاء، وأصبح تعويضاً عن العجز الفعلي، فالقادر لا يدعو، والفاعل لا يسأل، وهو ما سماه إقبال لمن يرفع يديه إلى السماء داعياً (فلسفة السؤال) " [٩] .

ويضيف الدكتور حسن حنفي : "إن الابتهال والدعاء والسؤال لله لا تعني أن الإنسان ليس خالقاً لأفعال الشعور الداخلية، بل هي أقرب إلى تقوية الذات وتحمية الشعور، وعقد العزم، وإلا وقعنا في فلسفة السؤال، وفي موقف الشحاذة" [١٠].

---

(٩) من النقل إلى العقل د. حسن حنفي ٢ / ٤٦٠.

(١٠) من العقيدة إلى الثورة حسن حنفي ٣ / ٣٣ .

" وإذا كان الدعاء تعبيراً عن العجز لزم التعويض كطريق ثان لتجاوز العجز، ويأتي هذا التعويض في صورة الإيمان بالإله الواحد القهار الذي يسند الجميع ولا يخذل أحداً [١١]" " ويُستعمَل الله[تعالى الله عز وجل] للإخافة والردع والحماية" [١٢]، " هكذا ينشأ التأليه من الضعف إلى القوة، ومن العجز إلى الإرادة، فالإيمان بالله تأليه عِلّية ذاتية، وليست إثباتاً لموضوع خارجي " الله "، الله عملية تأليه ذاتية، وليس موضوعاً ساكناً خارجياً يشار إليه منفصلاً عن الذات، المعرفة وجود، والوجود معرفة" . [١٣]

الدعاء في هذه الرؤية الحَسْنَفِيَّة ليس نابعاً من إيمان حقيقي بالله عز وجل، لأنه لا يوجد إله حقيقي – بنظره – وإنما الإله هو صناعة بشرية شعورية، الإنسان يصنع إلهاً ليدعوه، ليعوِّض النقص الكامن في كيانه، وليبرر عجزه، وليستند إليه شعورياً ونفسياً، إنه بذلك يخترع ذاتاً يتقوى بها، ويحمي بها شعوره، ويستخدم هذه الذات المُخترعة للردع والحماية، فالتأليه منشؤه العجز والضعف، فهو قضية داخلية ليس لها وجود موضوعي خارجي، ولا يخفى على المطلع أن هذه الفلسفة الحَسْنَفِيَّة ما هي إلا قراءة لفلسفة الفيلسوف الأماني فيورباخ، وماركس من بعده .

هذه الأفكار البائسة بنظري منشؤها أمران :

- التقليد لأسماء لامعة ومشهورة في سماء الفلسفة . (كما ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في المنقذ من الضلال) [١٤]، والسير على خطى ماركس أو إنجلز أو نيتشة أو سبينوزا أو فيورباخ .
- والثاني الرغبة العارمة في التجديد حتى بما لا يفيد، على مبدأ خالف تُعرف، واستفزاز الآخرين للرد والتفنيد، والبحث عن الشهرة حتى ولو على طريقة (من بال في ماء زمزم) [١٥].

---

(١١) من النقل إلى العقل . حسن حنفي ٢ / ٤٦٦.

(١٢) من النقل إلى العقل . حسن حنفي ٢ / ٤٦٩.

(١٣) من النقل إلى العقل . حسن حنفي ٢ / ٤٧٣.

(١٤) يتحدث الغزالي رحمه الله عن أقسام العلوم عند الفلاسفة ، ومن جملتها الحساب والهندسة والفلك، ويرى أن علومهم في هذا الجانب برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها، ثم يشير إلى أن هذه العلوم تولدت منها آفتان ": إحداهما أن من ينظر فيها فيتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها يُحسِنُ بسبب ذلك اعتقادَه في الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم، ثم يكون سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسن فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً لما خفي على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم، فإذا عَرف بالتسامع كُفْرَهَم وجَحْدَهَم استدلَّ على أن الحق هو الجَحْدُ والكُفْرُ والإنكارُ للدين، وكم رأيت من ضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه " . المنقذ من الضلال، الإمام الغزالي ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج – بيروت – دار المنهاج – ط١ ، ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م ، ص ٦٨ – ٦٩.

(١٥) هي ليست قصة حقيقية وإنما مثل ذكره الشهاب الخفاجي (ت: ١٠٦٩ هـ) في حاشيته على تفسير البيضاوي المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)، ونسبه للقزويني في سياق الرد على من قال بإيمان فرعون، وأن من قال بهذا القول قاله على مبدأ خالف تعرف، بحثاً عن الشهرة، ونقلها عنه الآلوسي (ت: ١٢٧٠ هـ) صاحب تفسير روح المعاني، والقاسمي (ت: ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م) في محاسن التأويل . يُنظر: حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: ١٠٦٩هـ) ، دار صادر – بيروت . ج ٥ ص ٥٦ . وينظر :روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي ، تحقيق : على عبد البارى عطية، دار

وهكذا نجد المتشك أو الملحد يفسر لجوء الإنسان إلى خالقه في حالة الضعف والحاجة تفسيراً مادياً ماركسياً أو فيورباخياً أو داروينياً أو نفسياً فرويدياً، فيتجلى ذلك في كلامه المعترض فيه على الله عز وجل، أو في فعله الذي يريد فيه أن يتحدى خالقه ومولاه سبحانه وتعالى، كما مر معنا في بعض النصوص التي نقلناها عن بعض المتعثرين. المهم عنده أن لا يُسلِّم بالتفسير الديني وهو أن هذا اللجوء فطرة كامنة في نفس الإنسان، تستيقظ بعد أن كانت مغطاة بحجب من الشهوات والغفلات، وتظهر جليةً في أوقات المحن والشدائد، وهذا يمكن فهمه بِيُسرٍ حين نفهم أن الشأن الأساسي الذي خُلقت هذه الحياة الدنيا من أجله هو البلاء والابتلاء **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] فالحياة والموت مخلوقان لغاية جوهرية قامت عليها هذه الحياة الدنيا وهي الابتلاء، فلا يمكن أن تنفك عنه هذه الدار؛ لأنها دار الامتحان والاختبار، وليست داراً للجزاء .

ثالثاً – سبيل الحقيقة :

وإن أفضل مدخل للإجابة على إشكالات المتشككين، وأسئلة الحائرين، الولوج إلى جوهر هذا الإنسان ومحاولة إيقاظ شعوره بهويته الحقيقية، ووظيفته الأساسية في هذا الوجود، ربما تنفع وتجدي الأدلة الفلسفية والعقلية في أحيان كثيرة في هذا الباب، إلا أننا في هذا البحث سنسلك سبيلاً آخر وهو: النقر على زر الهوية، لتفعيل شريط العبودية المغطاة بطبقات من الأغطية الكثيفة، لعل شعاعاً منها يخترق الحجب ويبدد كل موانع الاستيقاظ والنهوض .

وإن سبيلنا إلى هذه الغاية أن نلجأ إلى أهل الصنعة فيها، وهم أهل الله والعارفون به، والقاعدون في أعتابه، والمنطرحون على بابه سبحانه وتعالى، ونتأمل في تجربتهم الوجودية، لنأخذ منها العبرة والفهم لأنفسنا، وحياتنا، وقصتنا في هذا الكون .

سَمِّهم إن شئت العارفين أو الصوفية أو الزهاد أو الأولياء أو أهل الله، إنهم قوم عرفوا حقيقة هذه الحياة، وعرفوا مَنْبَعَها ومَصَبَّها ومبدأَها ومنتهاها، فلا يشربون إلا من رأس النبع كما يقولون، لم يُتعبوا أنفسهم في تفاريع الحياة وتشعباتها، ولم يضيعوا وقتهم في وديانها ووهادها، عكفوا عند باب المليك المقتدر، ومرَّغوا هناك جباههم، وأطالوا سُهادهم، فهم قارُّون مطمئنون في كل الأحوال، في السراء والضراء، إن رضي عنهم فهم في سعادتهم على بابه ماكثون، وإن سخط عليهم فهم في رجائهم وأملهم على أعتابه

الكتب العلمية ـ بيروت ، سنة الطبع: ١٤١٥ هـ ، ج ٦ ص ١٧٥ . وينظر : محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ، ج ٦ ص ٥٩ .

متضرعون، لا يرون لأنفسهم ملجأ ولا منجىً من الله إلا إليه: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾ [العلق : ٨] ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] وشعارهم في هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((من جعل الهموم هما واحدًا كفاه الله هم دنياه، ومن تَشَعَّبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك)) (١٦).

تمثل التجربة الصوفية في فهم الدعاء وممارسته تجربة ذوقية عملية عميقة، يمكن أن تُفهم على أنها شكلٌ من أشكال الإجابة على التساؤلات والإشكالات التي ترد على موضوع الدعاء لدى كثير من العقول، وهي تجربة تقوم على ركيزتين: الفهم أولا، والذوق ثانياً، أو التشويق فهماً، والتذويق سلوكاً .

إنها تجربة تنطلق من الفهم الحقيقي لطبيعة الحياة، طبيعة الكون، طبيعة الإنسان، ومن ثم العلاقة الواجبة والضرورية مع الخالق عز وجل، إنها تعطي لكل ذي حق حقه: فالإله سبحانه وتعالى العزيز الجبار شأنه الكبرياء والعظمة والجبروت والملك والملكوت، والإنسان شأنه مع هذا الخالق عز وجل العبودية والاستكانة والتذلل والتضرع، والدنيا شأنها الفناء والزوال، ويُتعامَل معها طبقاً لذلك، والآخرة شأنها البقاء والديمومة، ويُتعامَل معها طبقاً لذلك .

وسنتناول في المباحث الآتية إن شاء الله عز وجل وجهة النظر الصوفية في الدعاء، كيف يفهمونه؟ وكيف يمارسونه؟ وكيف يمكن الاستفادة من هذه التجربة الإيمانية في فهم الإشكالات والتساؤلات التي تتوجه إلى العقل والإيمان في قضية الدعاء .

---

(١٦) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية – ط١، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ . قال الحاكم عن الحديث: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح . وينظر : سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، ج ٢ ص ١٣٧٥، وقال الألباني: حسن

المبحث الثاني

معنى الدعاء بين الذلة والاضطرار والعزة والاختيار

تمهيد :

يعيش الإنسان في هذه الحياة بين خيارين لا ثالث لهما:

الأول : أن يتقبل عبوديته لله عز وجل برضا واستكانة، فيكون عبداً ذليلاً لله عز وجل، فيعوضه الله عز وجل بأن يمنحه العزة والكرامة والسيادة في الكون، وعلى كل المخلوقات، والسعادة والراحة في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨] ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] .

الثاني : أن يرفض هويته الحقيقية، وهي العبودية، ويتنكَّر لها، ويتكَّبر على ربه عز وجل، فيعاقبه الله عز وجل بأن يُذِلَّه في هذا الكون لأدنى مخلوقاته، ويجعله عبداً أسيراً لشهواته، ثم لا يحصد في حياته إلا الشقاء والضنك في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦] .

وعليه نفهم قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك ياعبادي وأن صيَّرت أحمد لي نبيا

أولاً : معنى الدعاء :

قال صاحب جوهرة التوحيد :

وعندنا أن الدعاء ينفع كما من القرآن وعداً يُسمع

والدعاء لغة : الابتهال بالسؤال، والرغبة فيما عند المسؤول من خير .

واصطلاحاً : هو الطلب على سبيل التضرع وقيل: رفع الحاجات إلى رافع الدرجات . قال الخطابي : " وحقيقة الدعاء استدعاء العبد من ربه العناية، واستمداده إياه المعونة، وفيه معنى الثناء على الله، وإضافة الجود والكرم، كما فيه إظهار الافتقار إلى الله، والبراءة من الحول والقوة إلا به "، وورد الدعاء في القرآن الكريم بمعان منها: الاستغاثة: كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٤١] والنداء كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ [القصص: ٢٥] والطلب والسؤال من الله كما في قوله تعالى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله عز وجل: ﴿

وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] هذا والنسبة بين الاستغفار والدعاء العموم والخصوص المطلق، فكل استغفار دعاء وليس كل دعاء استغفار. قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: إن المذهب المختار الذي عليه الفقهاءُ والمحدِّثُونَ وجماهيرُ العلماء سلفاً وخلفاً أن الدعاء مُسْتَحَبٌّ، وقد يكون واجباً كالدعاء في صلاة الجنازة، قال الله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفْيَة ﴾ [الأعراف: ٥٥]. وهو سبب عظيم لغفران الذنوب، عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت أرحم الراحمين (١٧)" (١٨). والدعاء مفتاح الحاجات، وهو مستروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المآرب (١٩) .

والخلاصة : أن الدعاء عبادة يثاب عليها العبد، وإن لم يحصل له ما طلب، قال ﷺ: ((الدعاء مخ العبادة)) (٢٠). وفي حديث آخر:((الدعاء هو العبادة)) (٢١). فلا ينبغي أن يُفهم الدعاء بأنه طلب فقط، ورغبة في تحصيل الأغراض، بل يُعبِّر الدعاء عن مَحْض العبودية لله عز وجل، وخالص الافتقار والارتماء بين يديه جل وعلا، والتبرؤ من الحول والقوة، والاستسلام والتفويض لله عز وجل، وهذا معنى كونه مُخُّ العبادة، أو هو العبادة بحيث يتماهى معها بشكل مطلق .

وهذا هو المعنى العميق لعبودية الله عز وجل، وهو الذي يعبر عنه الحديث السابق الدعاء مخ العبادة، وهو التعبير العملي والحقيقي عن الهوية التي كرّم الله عز وجل بها الإنسان "العبودية"، فهو يتعامل مع ربه عز وجل كعبد مستسلم، مُفوِّض، لا يرى أن له حقاً على الله عز وجل، بل يرى دائماً في نفسه التقصيرَ، وواجبُه ملازمةَ بابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، إنْ قَبِلَهُ فذاك ويافوزَه، وإنْ لمْ يَقْبَلْهُ فليس لديه خيارٌ آخر إلا الانبطاح في الأعتاب، والتضرع على الأبواب، ويَحكي ابنُ عجيبة قصةً عن أحد الصالحين تُعبِّرُ عن هذا المعنى يقول: كان أحدُ العبّاد في مكةَ بقي أربعين سنة مجاوراً وهو يقول: لبيك اللهم لبيك، فيسمع هاتفاً يقول له: لا

---

(١٧) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط١ /١٤٢٢هـ، باب الدعاء قبل السلام، ج ١ ص ١٦٦. ويُنظر: صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، باب خفض الصوت بالذكر ج٤ ص٢٠٧٨ .

(١٨) عبد الكريم تتان و محمد أديب الكيلاني " عون المريد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة " ٢ / ٩٥١ – ٩٥٢.

(١٩) الرسالة القشيرية ٢٩٦.

(٢٠) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٥٦)٣٣٧١ – قال الإمام الترمذي رحمه الله تعالى : «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ». [حكم الألباني] : ضعيف.

(٢١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)٣٨٢٨ –باب فضل الدعاء. [حكم الألباني] صحيح . وسنن أبي داود (٢/ ٧٦)١٤٧٩– سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢١١)٢٩٦٩ – قال أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى : «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» تعليق شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح . والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٦٧)١٨٠٢ .

لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك، وهو ملازم لم يبرح مكانه وعبادته، فجاءه رجل يزوره، فلما قام العابد يدعو يقول: لبيك، سمع الرجل الزائر هاتفاً يقول له: لا لبيك ولا سعديك، فقام الزائر منصرفاً؛ وهو يقول لنفسه هذا رجل مطرود، فناداه العابد مالك؟ فقال: يا سيدي القائل يقول لك: لا لبيك، فقال: يا هذا لي أربعين سنة أسمع هذا الخطاب، وهل ثمة أبواب أخرى؟! أنا واقف في بابه ولو طردني ألف مرة، فقبله الحق تعالى.(٢٢)، وليس المهم هنا أن نبحث في صحة القصة أم لا، المهم هو المغزى منها، وهو أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا مفرَّ من الله عز وجل إلا إليه، وواجبُ الإنسان أن يُلقيَ أحمالَه في الأعتاب، ولا يَملّ من طرق الباب، إذ لا بابَ غيره .

ثانياً: الإنسان بين الأمانة والعبودية :

إن الأساس في وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض هو التكليف قال الله عز وجل:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] إذ إن الإنسان رضي أن يكون عبداً لله عز وجل، قال جل شأنه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ، فمن مقتضيات العبودية التسليم والاستسلام طوعاً واختياراً، وإلا فهو عبدٌ قهراً واضطراراً . وهكذا نفهم قول الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله: " ولذلك قلّ أن تجد الزاهد والعابد إلا مكموداً حزيناً، لأنه علم أن الله طالَبَه بالعبودية وحَمَّله أعباءَها، وألزمه ما أشفقت السماوات والأرض والجبال من حمله، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] فعاين الزُّهَّاد ثقل ما حملوا، ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله؛ الحامل للأثقال عن عباه المتوكلين عليه، فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن،. وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حُمِّلوا من التكاليف أمراً عظيماً، وعَلموا ضعفهم عن حمله، وعن القيام به متى وُكِلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه:﴿ **وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا** ﴾[سورة النساء ٢٨] .

وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله؛ حمل عنهم ما حَمَّلهم، قال الله سبحانه: ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[سورة الطلاق: ٣] فرجعوا إليه بصدق الرجعى، فحمل عنهم الأثقال، فساروا إلى الله محمولين في محفات المنن، تروح عليهم نفحات اللطف، والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه؛ فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم، إلى شهود سابق توفيقه لهم؛ فطابت لهم الأوقات، وأشرقت فيهم العنايات" (٢٣).

---

(٢٢) **إيقاظ الهمم ص ٤٦٨ .**

(٢٣) **لطائف المنن – ابن عطاء الله السكندري ص ١٦٩.**

نجد هنا أن الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله كيف يربط الحمل الثقيل الذي تحمَّله الإنسان وهو الأمانة بالعبودية، فالإنسان إذا نظر إلى ثقل ما يحمل أصابه الكمد والحزن والخوف من وعورة الطريق، ولكنه إذا ما لجأ إلى الله عز وجل، وتوكل عليه حق التوكل، هدأت نفسه، واستراحت روحه، فطابت له الأوقات وأشرقت فيه العنايات .

وقال ابن عطاء الله رحمه الله في لطائف المنن قال الشيخ أبو العباس المرسي: " في قوله تعالى :﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [النمل: ٦٢] الولي لا يزال مضطراً ، ثم عقب ابن عطاء الله بقوله: ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرارهم مثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم ، لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطر إلى مُمِدٍّ يُمِدُّه ، ومَدَدٍ يُمِدُّه به، وكما أن الحق سبحانه هو الغني أبداً، فالعبد مضطر إليه أبداً، ولا يزايلُ العبدَ هذا الاضطرارُ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنةَ فهو محتاجٌ إلى الله فيها، غير أنه غُمِسَ اضطرارُه في المنَّة التي أَفرَغت عليه ملابسها، وهذا هو حكم الحقائق: أن لا يختلف حكمها لا في الغيب، ولا في الشهادة، ولا في الدنيا ولا في الأخرة "[٢٤] . يبين الشيخ رحمه الله هنا أن شأن العبودية هي الاضطرار، جوهر العبودية لله عز وجل هو الاضطرار، الاحتياج الشديد إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة، فلا يمكن للعبد أن يستغني عن ربه عز وجل، والفرق بين عامة الناس وأهل القرب أن العامة يستثير اضطرارهم الأسبابُ والابتلاءاتُ، فيلجؤون إلى الله عز وجل أوقات المحن والشدائد، ثم يعودون إلى الغفلة والعصيان إذا ا زالت الأسباب، أما العارفون فإنهم علموا علم اليقين أنهم في كل لحظة وحركة وسكنة في قبضة الباري عز وجل، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد، وأن حاجتهم إليه كحاجتهم إلى النَفَس والشهيق والزفير وهذا لا يختلف دنيا وأخرى.

ثم يضيف الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله : " ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره، وقد عاتب الله قوماً اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢] وقال عز وجل: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٣] إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى. ولمَّا لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه

---

(٢٤) **لطائف المنن – ابن عطاء الله السكندري ص ١٢٨.**

حقائق وجوداتهم، سلط الحقُّ عليهم الأسبابَ المثيرةَ للاضطرار ليعرفوا قهرَ ربوبيته وعظمة إلهيته وكبريائه" [٢٥]. يريد الباري عز وجل من عباده أن ينغمسوا في حقيقة عبوديتهم دائماً، ليكونَ معهم بتوفيقه وهدايته ولطفه ورحمته، فلما لم يفعلوا سلَّط عليهم أسبابَ الاضطرار ليردَّهم إليه تفضلاً منه ورحمة بهم. ثم يقول الشيخ رحمه الله : " ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطرار أن الحق سبحانه أوقف الإجابة عليه فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [النمل: ٦٢] وإذا أراد الله سبحانه أن يعطي عبداً شيئاً وهبه الاضطرار إليه فيه، فيطلب باضطرار، فيُعطَى، وإذا أراد الله أن يمنع عبداً أمراً منعه الاضطرار إليه، ثم منعه إيَّاه، وقامت حجة الله على العبد: لو اضطررت إلينا لأعطيناك، فلا يُخاف عليك أن تَضطر وتطلبَ فلا تُعطَى، بل يُخافُ عليك أن تُحرم الاضطرارَ فتُحرَمَ الطلب، أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء" [٢٦] . إن الاضطرار – بنظر القوم – بحد ذاته نعمة عظمى، أُعطيَ الإنسان أم لم يُعطَ .

ثالثاً: الروح السامية والمطالب العالية :

الإسلام يسمو بالإنسان إلى درجة عالية، حتى يكاد يُفضَّلُ على الملائكة الذين هم صفوة الله من خلقه، فليست هذه الحياة الدنيا من أجل مطالب تافهة، وغايات سخيفة، يريد الإسلام للإنسان أن يكون طَمُوحاً، وذو هِمَّة عالية، تطلب القمة، ولا ترضى بها بديلاً، ولذلك قال النبي ﷺ : ((«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» [٢٧]، وحتى الفردوس الأعلى عند العارفين ليس هو المطلب والغاية، بل هناك ما هو أعظم وأسمى: مقام القرب من الله عز وجل:﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] والفوز بمحبة الله، والوصول إلى رضاه، فهو غاية المنى، وإليه المنتهى سبحانه وتعالى، ولذلك قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: " لله رجالٌ لو حجبهم في الجنة عن رؤيته؛ لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار، لكنهم على الأرائك ينظرون " [٢٨]. وقال ابن عطاء الله رحمه الله: " النعيم وإن تنوعت مظاهره إنما هو بشهود اقترابه، والعذاب وإن تنوعت مظاهره؛ إنما هو بوجود حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم" [٢٩]، وقال ابن عجيبة الحسني رحمه الله تعالى: " نعيم الروح وعذابها هو بشهود ربها واحتجابها، وذلك بعد تَخَلُّصها من عالم الأشباح، وتَرَقِّيها إلى عالم الأرواح، فيكون حينئذ نعيمها روح الوصال، وريحان

---

(٢٥) لطائف المنن – ابن عطاء الله السكندري ص ١٢٨ – ١٢٩.

(٢٦) لطائف المنن – ابن عطاء الله السكندري ص ١٢٨ – ١٢٩.

(٢٧) صحيح البخاري كتاب : الجهاد والسير ، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم الحديث : ٢٧٩٠ ، ج ١ ص ١٦ .

(٢٨) إيقاظ الهمم ص ٦٢٩ .

(٢٩) إيقاظ الهمم ص ٤٧٣ .

الجمال، وعذابها احتجابها عن شهود ذلك الجمال، وبعدها عن الكبير المتعال، وفي البخاري ((وما بين الناس وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[٣٠]. ولا يفهم هذا الرداء إلا أهل الأذواق، وأما أهل النار فأحسوا بالبعد من الواحد القهار، فتضاعف عذابهم في دار البوار، ولو أن الحق تعالى تجلى لهم بصفة جماله لأنساهم ذلك اليوم عذابَه، ولو أنه تعالى احتجب عن أهل الجنة لضاق عليهم فسيح الجنان، ولانقلب نعيمُهم نقمةً وعذابًا " [٣١].

كم هو شقيٌّ ذلك الإنسان الذي رضي بالدون في هذه الحياة الدنيا، فأضاعها في منافسات كاسدة، ومسابقات خائبة، وذُهِل أو شُغِل عن أن هذه الحياة هي ساحة للتنافس على الأمور العظيمة الجليلة، تنافسٌ على نعيم يبقى ولا يزول، وتنافسٌ على مراتب عالية، فشتان بين من يطلب معالي الأمور ومن يطلب سفاسفها، ومن يطلب القمة وينافس عليها، ومن يطلب المراتب الدنيَّة ويضيع وقته فيها .

وإذا كانت الفردوس الأعلى هي القمة، فإن المنافسة عليها تقتضي العمل، وبذل الوسع في المنافسة، لأن طلب العلا بدون عمل من الأماني الفاسدة، ونهايته الخيبة والخسران، "فالداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر "[٣٢] كما روى البيهقي عن أحد العارفين.

---

(٣٠) صحيح البخاري (٦/ ٢٧١٠) رقم : ٧٠٠٦ – باب قول الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)، وصحيح مسلم (١/ ١٦٣) ٢٩٦ – (١٨٠) باب : إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة .

(٣١) إيقاظ الهمم ص ٤٧٣ .

(٣٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٨٦) رقم : ١١٠٨ .

المبحث الثالث

فلسفة المنع والعطاء عند الصوفية

يفهم الناس عادة أن إجابة الدعاء تكون بالعطاءات الظاهرة، وتحصيل الأغراض المطلوبة، كأن يدعو المحروم من الأولاد طالباً الولد، أو المريض طالباً الشفاء، أو المبتلى ببلاء معين طالباً رفع البلاء، أو المظلوم طالباً الانتصار له من ظالمه، أو الفقير طالباً الغنى، إلخ... فإن لم يحصل ذلك للعبد في دعائه فهو يتضايق ويتململ لأن الله عز وجل – بنظره – لم يستجب دعاءه، إلا أن للصوفية فهماً آخر لمعاني العطاء والمنع، يستند هذا الفهم في مجمله على القاعدة الصلبة التي يقيمون عليها علاقتهم مع الباري عز وجل وهي: جوهر العبودية . فما هو هذا الجوهر ؟

أولاً– ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك :

هذا معنى من المعاني العميقة للفهم عن الله عز وجل، حيث دائماً يرى الفضلَ لله عز وجل، والمنةَ له في عطائه وفي مَنْعِه، في السراء والضراء، وهو في الحقيقة معنى يتجلى في قول النبي صلى الله عليه وسلم :«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[٣٣] يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: " تفكرت في قول شيبان الراعي لسفينا الثوري: يا سفيان عُدَّ مَنْعَ الله إياكَ عطاءً منهُ لك، فإنه لم يَمْنَعْكَ بُخْلاً، إنما مَنَعَكَ لُطْفاً، فَرَأَيْتُه كلامَ من قد عرفَ ربَّهُ ... وكذلك إنفاذ قدر القوت فإنه نعمة، وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»[٣٤] ومتى كثر تشتت الهمّ، فالعاقل من علم أن الدنيا لم تُخلق للتنعيم، فقنع بدفع الوقت على كل حال"[٣٥].

والمنع والعطاء عند العارفين له معاني عديدة، كما قال ابن عطاء الله رحمه الله : " ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك"[٣٦]، وقال ابن عجيبة رحمه الله:" الغالب على النفس الأمارة اللوامة أن تنبسط بالعطاء، وتنقبض بالمنع؛ لأن في العطاء مُتعتَها وشهوتها، فلا جرم أنها تنبسط بذلك، وفي المنع قطع مواردها وترك حظوظها، ولا شك أنها تنقبض بذلك، وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها، فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء، والعطاء عين المنع"".[٣٧]

---

(٣٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥) رقم الحديث:(٢٩٩٩). من حديث صهيب رضي الله عنه ، باب المؤمن أمره كله خير.

(٣٤) صحيح مسلم (٢/ ٧٣٠) ١٢٦ – (١٠٥٥) باب في الكفاف والقناعة .

(٣٥) صيد الخاطر ، ابن الجوزي ص ٣٢٨ .

(٣٦) إيقاظ الهمم، ابن عجيبة ص ٢١٢ .

(٣٧) إيقاظ الهمم ص ٢١٢ .

ثانياً – أساس الراحة الفهم: إن الفهم لمعنى المنع والعطاء راحة للقلب والعقل، ولذلك قال ابن عطاء الله موضحاً أيضاً:" متى فُتح لك بابُ الفهم في المنع، عاد المنعُ هو عين العطاء " [٣٨] وقال الشيخ زروق رحمه الله معللًا ذلك: " لأنه يردُّكَ إلى مولاك، ويصلك به من جهة ما به تولاك، والنعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق ... ومن مقتضيات الفهم عن الله وجود الرضا عنه سبحانه وتعالى، لأن الرضا عن الله جَنَّة مُعجَّلة، وحالة حسنة، ومفتاح كل خير وبِر، وقال عبد الواحد بن زيد رضي الله عنه: الرضا باب الله الأعظم، ومستراح العابدين، وجنة الدنيا" [٣٩] .

وقال ابن عجيبة رحمه الله: " فلا تتهم ربك أيها العبد في المنع ولا في العطاء، فإنه متى أعطاك أشهدك بِرَّه ورحمتَه، فعرفت بذلك أنه بَرٌّ كريمٌ رؤوفٌ رحيمٌ، فتتعلق بكرمه وجوده، دون غيره، فتتحرر من رِقِّ الطمع، ويذهب عنك الغم والجزع، وتتخلق أيضا بوصف الكرم والإحسان، فإن الله يحب أن يتخلقَ عبدُه بخُلُقِه، وفي الحديث: ((تخلقوا بأخلاق الرحمن)) [٤٠] " [٤١] .

ثالثاً – " إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه " [٤٢]: وهذا كله يذوقه من يفهم عن الله، قال ابن عجيبة رحمه الله: " لأن الفهم عن الله يقتضي وجود المعرفة به، ولا تكون المعرفة كاملة حتى يكون صاحبها يعرفه في الجلال والجمال، والمنع والعطاء، والقبض والبسط، وأما إن كان لا يعرفه إلا في الجمال فهذه معرفة العوام؛ الذين هم عبيد أنفسهم، فإن أعطوا رضوا وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون ... فلا يكون المحب صادقاً في محبته، ولا العارف صادقاً في معرفته، حتى يستوي عنده المنع والعطاء، والقبض والبسط، والفقر والغنى، والعز والذل، والمدح والذم، والفقد والوجد، والحزن والفرح، فيعرف محبوبه في الجميع ... ويرضى ويسلم في الجميع، فإن لم يجد ذلك عنده سواء فلا يدَّعي مرتبة العشق والهوى، فيعرف قدره، ولا يتعدى طوره، ولا يترامى على مراتب الرجال، من ادعى ما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان، ولابن الفارض :

فإن شئتَ أن تحيا سعيدًا فَمُت به شهيداً وإلا فالغرام له أهل "[٤٣]

---

(٣٨) إيقاظ الهمم لابن عجيبة ص ٢١٤ .

(٣٩) حكم ابن عطاء الله – الشيخ زروق ص ١٢٩– ١٣٠ . وإيقاظ الهمم ص ٢١٢ – ٢١٤ .

(٤٠) لم أجد له أصلا، وأورد السيوطي في كتابه " تأييد الحقيقة العلية " نص حديث : تخلقوا بأخلاق الله، ولم يعزه إلى أحد، قال الألباني رحمه الله في تخريجه لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي : لم أجد له أصلا في كتب السنة . يُنظر : شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (ت: ٧٩٢هـ) تحقيق : جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني ، القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة (عن مطبوعة المكتب الإسلامي) الطبعة المصرية الأولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

(٤١) إيقاظ الهمم ص ٢٣٤.

(٤٢) إيقاظ الهمم ٢٣٥ .

(٤٣) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢٣٥ –٢٣٦. بيت الشعر من ديوان ابن الفارض من قصيدة :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضْنى به وله عقل

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: " لأنك لو فهمتَ عنه تسلَّيتَ بما فهمتَه من لطفه وإبراره في منعه وعطائه، إذ الكلُّ رحمةٌ وكرامةٌ ولطفٌ ... فمن عَلِمَ أن الله تعالى رحيم به ومتفضلٌ عليه ولطيفٌ به لم يتألم بما يواجهه منه" (٤٤).

رابعاً – الرضا في المنع والعطاء، والبلاء والرخاء :

فمتى ما رزق العبد الرضا؛ فإن المنع يصبح عين العطاء، لأنه يتقبل من ربه عز وجل كل ما يصيبه من نعم ومن نقم برضا نفس، وهدوء قلب، وطمأنينة روح، لماذا؟ لأنه من الله، من سيده ومولاه، كما قال ابن عطاء الله في إحدى حكمه " لِيُخفِّفْ عنك ألمَ البلاءِ عِلْمُكَ بأنه هو المبلي لك "(٤٥)، وهي كما نرى درجة عالية من العبودية والتسليم لله جل وعلا، تضفي على النفس درجة عالية من الراحة والطمأنينة والسكينة. لأن العطاء والمنع من الله جل شأنه لا يتعلق بظواهر الأمور وشكلياتها، بل يتناول خفايا النفس والروح ومطوياتها التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، ولذلك قال ابن عجيبة رحمه الله :

"" فربما أعطاك ما تشتهيه النفوسُ، فمنعك بذلك حضرةَ القدوس، وربما منعك ما تشتهيه نفسُك فيتم بذلك حضورُك وأنسُك، وربما أعطاك متعةَ الدنيا وزهرتَها، فمنعك جمالَ الحضرة وبهجتَها، وربما منعك زينةَ الدنيا وبهجتَها، فأعطاك شهودَ الحضرة ونظرتَها، وربما أعطاك قوتَ الأشباح، فمنعك قوتَ الأرواح، وربما منعك قوتَ الأشباح، فمتعكَ بقوتِ الأرواح، وربما أعطاك إقبالَ الخلق، فمنعك من إقبال الحقِّ، وربما منعك من إقبال الخلق، فأعطاك الأنسَ بالمِلك الحقِّ وربما أعطاك العلومَ، وفتح لك مخازنَ الفهوم، فحجبك بذلك عن شهود المعلوم، ومعرفة الحيِّ القيُّوم، وربما منعك من كثرة العلوم، وأعطاك الأُنْس بالحيِّ القيُّوم، فأحطتَ بكل مجهول ومعلوم، وربما أعطاك عزَّ الدنيا ومنعك عزَّ الآخرة، وربما منعك من عزِّ الدنيا وأعطاك عز الآخرة... "(٤٦).

خامساً– الخوف والرجاء في المنع والعطاء :

المؤمن لا يقر له قرارٌ، ولا يهدأ له بالٌ حتى يطمئن إلى نهايته عند الله عز وجل، وهذا لا يكون إلا بعد الموت، لذا فهو متردِّدٌ دائماً بين الخوف والرجاء، فقد روى واثلة بْنُ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((أُقْسِمُ، الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ أَنْ لَا يَجْتَمِعَا فِي أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا

وعش خالياً فالحب راحته عناً وأوله سقم وآخره قتل
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به شهيداً وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت في حبه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

(٤٤) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ١٤٠ .

(٤٥) إيقاظ الهمم ص ٢٥٦ .

(٤٦) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢١٢ – ٢١٤.

فَيُرَحْ رِيحَ النَّارَ، وَلَا يَفْتَرِقَا فِي أَحَدٍ فِي الدُّنْيَا فَيُرَيَّحْ رِيحَ الْجَنَّةِ "))[٤٧]. وقال الْحَلِيمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ موضحا العلاقة بين الخوف والرجاء: " لِأَجْلِ تَنَاسُبِ الْأَمْرَيْنِ قَرَنَ اللهُ تَعالَى بِهِمَا فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فَالْخَوْفُ: الْإِشْفَاقُ، وَالطَّمَعُ: الرَّجَاءُ، وَقَالَ فِي قَوْمٍ مَدَحَهُمْ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ: ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء: ٥٧] وَقَالَ: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]: فَالرَّغْبَةُ: الرَّجَاءُ، وَالرَّهْبَةُ: الْخَوْفُ " [٤٨]، وعبر عن هذا أبو علي الْجُوزَجَانِيَّ بقوله: " ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ مِنْ عِقْدِ التَّوْحِيدِ: الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ، وَالْمَحَبَّةُ، فَزِيَادَةُ الْخَوْفِ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ لِرُؤْيَةِ الْوَعِيدِ، وَزِيَادَةُ الرَّجَاءِ مِنِ اكْتِسَابِ الْخَيْرِ لِرُؤْيَةِ الْوَعْدِ، وَزِيَادَةُ الْمَحَبَّةِ مِنْ كَثْرَةِ الذِّكْرِ لِرُؤْيَةِ الْمِنَّةِ، فَالْخَائِفُ لَا يَسْتَرِيحُ مِنَ الْهَرَبِ، وَالرَّاجِي لَا يَسْتَرِيحُ مِنَ الطَّلَبِ، وَالْمُحِبُّ لَا يَسْتَرِيحُ مِنْ ذِكْرِ الْمَحْبُوبِ، فَالْخَوْفُ نَارٌ مُنَوِّرَةٌ، وَالرَّجَاءُ نُورٌ مُنَوِّرٌ، وَالْمَحَبَّةُ نُورُ الْأَنْوَارِ " [٤٩]،وقال أَبو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ: " الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ هُمَا كَجَنَاحَيِ الطَّيْرِ إِذَا اسْتَوَيَا اسْتَوَى الطَّيْرُ وَتَمَّ طَيَرَانُهُ، وَإِذَا نَقَصَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا وَقَعَ منه النَّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا جَمِيعًا صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ الْمَوْتِ" [٥٠]، وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: " إذا كان الأمر كذلك فكن خائفاً راجياً في عطائه ومنعه، راجعاً باللجأ والافتقار إليه فيهما، غير مطمئن بشيء منهما، إذ قد يكون في طَيِّه خلاف ما ظهرت به صورته، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله:﴿ **فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ** ﴾ [سورة الفجر: ١٥] أي ليس الأمر كذلك، بل قد يكون المنع عطاء، والعطاء إهانة، أو على مقتضى صورته، فلا تفرح بشيء ولا تحزن عليه من حيث وجوده، فافهم. والمنع يكون في العطاء حين يكون صارفاً عن الله ومُشْغِلاً عنه كما قيل : ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم . " [٥١] .

سادساً – "العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله عز وجل إحسان "[٥٢] :

لأن العطاء من الناس تترتب عليه حقوق وواجبات ومسؤوليات، فيصبح الإنسان أسيراً لإحسانهم، وعبداً لعطائهم، ومتقلداً لمنحهم، أما المنْعُ من الله عز وجل فيترتب عليه اللجوء إليه، والتضرع بين يديه، والتفويض له، وهذه نعمة عظيمة، لا يعرف قيمتها إلا من ذاق لذتها، ويشرح ذلك الشيخ زروق رحمه الله

---

(٤٧) **شعب الإيمان ، البيهقي (٢/ ٣١٧) ٩٧٣ – وينظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص: ١٥٢) رقم الحديث : ١٠٧٤، حكم الألباني: ضعيف . الكتاب: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، (أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ت: ١٤٢٠هـ)أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت . ملاحظة: في شعب الإيمان تم ضبطه : أُقْسِمُ ، وفي صحيح وضعيف الجامع الصغير ضُبط: أَقْسَمَ.**

(٤٨) **شعب الإيمان، البيهقي (٢/ ٣١٤).**

(٤٩) **شعب الإيمان ، البيهقي ، (٢/ ٣٧)٤٦٢ .**

(٥٠) **شعب الإيمان (٢/ ٣٢٨)٩٩٦ .**

(٥١) **حكم ابن عطاء الله – الشيخ زروق ص ١٢٩ .**

(٥٢) **إيقاظ الهمم ص ٢٢٥ .**

بقوله : "" لأن المنع منه تعالى يقتضي اللجأ إليه، والدوام بين يديه، وحسن الاختيار فيما وجه به إليه، إذ لا يمنعك من بخلٍ، ولا عدمٍ، ولا افتقار، ولا احتياج، وإنما يمنعك رحمة بك، فالعطاء منه هو العطاء، والمنع منه هو عين العطاء؛ لمن فهم مراده به، ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلا صِدِّيق ... ويكون العطاء منعا إذا كان صارفاً لك عنه ... والله أعلم ""(٥٣).

وقال رحمه الله : " فأما العطاء من الخلق فهو حرمان من وجوه ثلاث: أحدها: تَقَلُّدُ المنَّة، وقد قال الحكماء: الصبر على العدم أيسر من تَقَلُّدِ المنن، والثاني: صرفُ الوجهِ إليهم، والأُنْسِ بهم، وربما أدى إلى الاعتماد عليهم؛ فكان سبب الطرد والإبعاد والعياذ بالله, والثالث: شَغْلُ الوقت بهم مكافأة وغيرها طلباً للسلامة من الذل معهم، وإلا كنت ذليلاً فيهم. وقد قيل: وعِزُّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة. وقال الشيخ أبو الحسن(٥٤) رضي الله عنه: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، لأن خيرَهم يصيبك في قلبك، وشرَّهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك؛ خير من أن تصاب في قلبك، وَلَعَدُوٌّ ترجع به إلى الله تعالى؛ خير من صديق يصدُّكَ عن الله، وفي وصية سيدنا علي كرم الله وجهه: لا تجعل بينك وبين الله مُنْعما، واعْدُدْ نعمةَ غير الله عليك مَغْرَماً " (٥٥).

سابعاً– يُشهدُك الباري عز وجل بِرَّه في عطائه، وقهرَه في منعه :

لأن الله عز وجل يريد أن يُقرِّبك منه، فمرة يقربك بالنعم والعطاء، ومرة بالمنع والبلاء، مرة بالجمال ومرة بالجلال، وهو ما عبر عنه ابن عطاء الله رحمه الله بقوله : " متى أعطاكَ أَشْهدَكَ بِرَّهُ، ومتى منعكَ أَشْهَدَكَ قهرَهُ، فهو في كل ذلك مُتَعَرِّفٌ إليك، ومُقْبِلٌ بوجودِ لُطْفه عليك" . وقال ابن عجيبة رحمه الله موضحاً ذلك: "من أسمائه اللطيف الخبير، فهو تعالى لطيف بعباده، رحيم بخلقه في كل وقت، وعلى كل حال، سواء أعطاهم أو منعهم، وسواء بسطهم أو قبضهم، فإن أعطاهم أو بَسَطَهُم أَشْهَدَهُمْ بِرَّهُ وإحسانَه، فعرفوا أنه سبحانه بارٌّ بعباده لطيف بخلقه، رحيم كريم جواد محسن، فتعظم محبتهم فيه، ويكثر شوقهم واشتياقهم إليه، ويكثر شكرهم، فيزداد نعيمهم، وفي هذا ما لا مزيد عليه من البر والإحسان، والجود والامتنان، وإن منعهم أو قبضهم أشهدَهم قهرَه وكبرياءَه، فعلموا أنه قهَّارٌ كبيرٌ عظيمٌ جليلٌ، فخافوا من سطوته، وذابوا من خشيته، وخضعوا تحت قهره، فدامت عبادتهم، وقلَّت ذنوبهم، ومُحيت مساويهم، واضمحلتْ خطيئتهم، فوردوا يوم القيامة خفافاً مُطَهَّرين، فرحين مبتهجين، إذ لا يجمع الله على عبده

---

(٥٣) حكم ابن عطاء الله – الشيخ زروق ص ١٣٣ .

(٥٤) علي بن عبد القادر السيد الشريف، أبو الحسن الشاذلي نسبة إلى شاذلة قرية بإفريقيا، رحمه الله الشيخ الزاهد المجاهد العارف بالله، شيخ الطريقة الشاذلية (ت : ٦٥٦ هـ) يُنظر : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية أو طبقات المناوي الكبرى، للشيخ عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، د.ت، ط٧ ج ٢ ص ١٢٦.

(٥٥) حكم ابن عطاء الله – الشيخ زروق ص ١٣٣ .

خوفين ولا أمنين، فمن أَخافَه في الدنيا أمَّنَه يوم القيامة، ومن أمَّنه في الدنيا فاغتر أخافه يوم القيامة كما في الحديث [٥٦]. " [٥٧]

ثامناً – الطفولة والرجولة بين المنع والعطاء :

الطفولة هنا يقصدون بها أحد أمرين: إما من التَّطفُّل، أي أن يدعي أنه من القوم وهو ليس منهم؛ لأنه لا يَقْدرُ على أحوالهم، ولا يُطيق صبرَهم، ولا يرتفع لصدقهم، فهو متطفِّل، أو أنه من الطفولة عكس الرجولة، أي أنه كالطفل يَسكتُ أن أُعطيَ، ويبكي إن مُنع، بينما يريد القوم ممن ينتمي إليهم أن يكون رجلاً في السراء والضراء، في البلاء والنعماء، وقد ذكر القرآن الكريم الرجولة في معرض المدح في مواضع منها قوله تعالى:﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال عز وجل في آية أخرى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧].

قال ابن عطاء الله رحمه الله:" متى كنت إذا أُعطيت بسطك العطاء، وإذا مُنعت قبضك المنع فاستَدِلَّ بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك في عبوديتك" [٥٨]. وقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله شارحاً: " الطفولية والتطفل هو الدخول في قوم وليس منهم، ولم يستأذنهم، والطفيلي هو الذي يأتي للوليمة من غير دعوة... فشبه المؤلف به من دخل مع القوم ولم يتحقق ما تحققوا به من استواء الأحوال ... إذ الصدق في العبودية يقتضي استواء النعمة والبلية... فإذا كان الفقير[٥٩] يتضعضع عند الجلال، وينهزم عند حملة الأبطال، فاعلم أنه ضعيف الحال، متطفل على مقامات الرجال"[٦٠]، وقال الشيخ ابن عطاء الله في التنوير يصف هؤلاء المتطفلين " أولئك الكاذبون على الله الصادّون العباد عن صحبة أولياء الله، لأن ما يشهده

---

(٥٦) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي ت: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ، (٢/ ٤٠٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا قَالَ: "وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أخفته يوم القيامة"،ويُنظر: مسند الشاميين، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، بيروت، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م ، ج١ ، ص ٢٦٦. ويُنظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت : ٤٣٠هـ) القاهرة، دار السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م ثم صورتها عدة دور منها ١ – دار الكتاب العربي – بيروت ٢– دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت٣– دار الكتب العلمية– بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق) ، ج ٦ ص ٩٨ . قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في الحكم على الحديث : إسناده حسن .وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح .

(٥٧) إيقاظ الهمم ٢٣٤ .

(٥٨) إيقاظ الهمم ٣٤١ .

(٥٩) المراد بالفقير هنا : الولي .

(٦٠) إيقاظ الهمم ٣٤٢ .

العموم منهم يسحبونه على كل منتسب إلى الله صادق أو غير صادق، فهم حُجُبُ أهل التحقيق، وسُحُبُ شموس أهل التوفيق، ضربوا طبولهم، ونشروا أعلامهم ، ولبسوا دروعهم، فإذا وقعت الحملة ولّوا على أعقابهم ناكصين، ألسنتهم منطلقة بالدعوى، وقلوبهم خالية من التقوى، ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٨] أتُرى إذا سأل الصادقين أيترك المُدَّعين من غير سؤال ؟! "[٦١].

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: "هذه علامةٌ يَعرف بها المريد حالَه في العطاء والمنع، والمدح والذم، فإذا كان يَقبل ذلك ويَرده من حيث الطبعُ والعادة، ومن حيث هو إقبالٌ وإدبار؛ فذلك دليل نقصه، إذ هو كالطفل في إقباله وإدباره، لا يشعر بما وراء العطاء والمنع، ولا يفرح ولا يحزن إلا لهما، وهو من مراعاته للخلق في حاله، فيحتاج لمقابلتهم بالنقيض من الفرار من المدح، والفرح بالذم حتى يستوي عنده الحالان، أو يكون الذمُّ إليه أشهى، أو تغلبُ عليه الحقيقةُ فيفرح بمولاه ويحزن لمولاه، وعلامة صدقه في ذلك وجود العدل في الرضا والغضب، فلا يتجاوز الحدَّ في مدح محسنٍ وإكرامه، ولا في ذمّ مسيءٍ وإهماله، وقد قال أبو عثمان الحيري رضي الله عنه: لا يَكْمُل الرجلُ حتى يستوي قلبُه في أربعة أشياء: في المنع والعطاء والعز والذل " . [٦٢] إنه اختبار صدق للإنسان في تعامله مع ربه عز وجل، فالصادق مع ربه لا يتغير في يسر أو عسر، ولا رخاء أو شدة، ولا فقر أو غنى، ولا صحة أو مرض، لأنه يعلم أن هذا كلّه من ربه عز وجل اختباراً وامتحاناً له ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ويكفيه راحة وسروراً أن يعلم أن الله عز وجل هو المبتلي له يقول ابن عطاء الله رحمه الله: ((لِيُخَفِّفْ عنك ألم البلاء عِلمُك أنه هو المُبْلي لك)) [٦٣].

---

(٦١) التنوير في إسقاط التدبير (أحمد بن عطاء الله السكندري ت : ٧٠٩ هـ) القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ٢٠٠٧ م ص ١٢٥ ، ويُنظر: إيقاظ الهمم ٣٤١ – ٣٤٣ .

(٦٢) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ١٨١ .

(٦٣) إيقاظ الهمم ص ٢٥٦ .

المبحث الرابع

فلسفة الطلب عند الصوفية

الطلب عند العارفين له دلالات عميقة، ويفهمون منه حكماً جليلة في التعامل مع الباري عز وجل، ومن خلال الطلب وما يَحُفُّ به من قرائن قبلية أو بعدية أو آنية يستخلصون علامات وإفادات تخص النفسَ الإنسانية وأعماقَها، وتخصُّ باطنَ الصلة بالله سبحانه وتعالى، فيصححون مسارهم، ويرتقون بأنفسهم، ويصلحون قلوبهم، ويعالجون أمراضهم، ونجد ذلك في المسائل الآتية :

أولاً – " متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك " :

هكذا قال ابن عطاء الله رحمه الله[٦٤]. وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى موضحاً ذلك: "متى أطلق لسانك بالطلب على وجه العبودية أو غيرها انطلاقاً ضرورياً فاعلم أنه يريد أن يعطيك ما تريد كما يريد، فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من أُذن له في الدعاء فُتحت له أبواب الرحمة، وما سُئل الله شيئاً قطُّ أحب إلى الله من أن يسأل العفو والعافية)) [٦٥]. وفي معنى ذلك قيل :

لو لم تُرد نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علمتني الطلبا [٦٦]

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى :" لأن الحق تعالى جعل الطلب سبباً من الأسباب، فإذا أراد أن ينجز للعبد ما سبق له فتح له فيه باب الطلب، فإذا حصل منه الطلب، حصل الذي قسم له في الأزل إظهاراً لحكمته، وإخفاء لقدرته، وتغطية لسرِّه، فالدعاء من جملة الأسباب العادية كالحرث والدواء والتزوج في الولد، وغير ذلك، وكل ذلك سبقت به المشيئةُ ونَفَذَ به القضاء والقدر، فما بقي الدعاء إلا إظهاراً للفاقة وإبقاء لرسم العبودية، لا طلباً لحصول ما لم يكن، جلَّ حكم الأزل أن يضاف للأسباب والعلل ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة)) [٦٧]... وقال الكتاني: لم يفتح الله لسان المؤمن بالمعذرة إلا وقد فتح له بالمغفرة. وقال الخفاف رحمه الله: وكيف لا يجيبه وهو يحبُّ

---

(٦٤) إيقاظ الهمم ص ٢٤٩.

(٦٥) ينظر الحديث في بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت: ٣٨٠هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل – أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، ص ٣٣ . وحكم الشيخ علي نايف شحود على الحديث بالضعف، يُنظر كتابه ((الاستعداد للموت)) ص ٤١٧، وكتابه مكفرات الذنوب في الكتاب والسنة ص ٤٢ .

(٦٦) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ١٤٣.

(٦٧) شعب الإيمان للبيهقي (٦/ ٢٩٤)٤٢١٠ – عن عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعًا، مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧]، وَمَنْ أُعْطِيَ الِاسْتِغْفَارَ لَا يُحْرَمُ الْمَغْفِرَةَ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} [نوح: ١٠] وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ التَّقَبُّلَ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [الشورى: ٢٥] ". " الْمَحْفُوظُ هَذَا الْمَتْنُ بِالْإِسْنَادِ الْأَوَّلِ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبَانَ مَتْرُوكٌ، وَرُوِيَ مِنْ وَجْهٍ آخِرَ ضَعِيفٍ ".

صوتَه، ولولا ذلك ما مُنح الدعاء، وإذا فتح لك الباب فلا تحتاج إلى طلب لغناك بمسبب الأسباب، فيكون دعاؤك إنما هو إظهار للفاقة والاضطرار اللازمتين لك مع كل نَفَسٍ، وفي كل وقتٍ وحالة." [٦٨].

ثانياً – خيرُ ما تطلبُه منه ما هو طالبُه منك :

كمثل قوله تعالى على لسان خليله: ﴿ **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** ﴾ [إبراهيم:٤٠] وكمثل قوله ﷺ ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) [٦٩] ويبين ذلك الشيخ زروق رحمه الله بقوله:" لأنه مختاره لك، وهو العالم بمصالحك، والقادر على توصيلها إليك، وأولى ما نرجع به إلى الله ما جاءنا عن الله، والذي هو طالبه منا ثلاث: التخلّي عن كل شيء إلا عنه، والتحلّي بما يرضيه عنك ويردك إليه، والدوام على ذلك حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير، ويعبر عن ذلك بإحدى عبارات ثلاث: الطاعة والغنى به عنها، والصدق في العبودية، والقيام بحقوق الربوبية، وامتثال أمره، والاستسلام لقهره"[٧٠].

وقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: " والذي طلبه منك هي الاستقامة ظاهراً وباطناً، ومرجعها إلى تحقيق العبودية في الظاهر، وكمال المعرفة في الباطن، أو تقول: الذي طالبه منا إصلاح الجوارح الظاهرة بالشريعة قياماً برسم الحكمة، وإصلاح القلوب والأسرار الباطنة بالحقيقة قياماً بوظائف القدرة، أو تقول: الذي طالبه منا امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، والاستسلام لقهره، فالأكمل في حق العارف أن يستغنيَ بعلم الله، ويكتفي بسؤال الحال عن طلب المقال، فإن تجلى فيه وارد الطلب فخير ما يطلبه من سيده ما هو طالبه منه" [٧١]، وقال رحمه الله: " فمتى أطلق لسانك أيها المريد بالطلب لشيء تجلَّى في قلبك، أو احتجتَ إليه، فاعلم أن الحق تعالى أراد أن يعطيَك ما طلبتَ منه، فلا تحرص ولا تستعجل، فكل شيء عنده بمقدار، فإن أطلق لسانك في الدعاء من غير سبب، فخير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك". [٧٢].

ثالثاً : الأدب قبل الطلب :

لأنك عبدٌ في حضرة المِلك الجبار، قيوم السموات والأرض، ومن نعمه عليك أن وفقَّك للوقوف بين يديه، وشرَّفك بعبوديته، وأقامك لدعائه وطاعته، قال ابن عطاء الله رحمه الله : " ليس الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تُرزقَ حسن الأدب "،وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى موضحاً ذلك: " إن الطلب كله مدخول عند المحققين أولي الألباب، لما يقتضيه من وجود النفس، والوقوف مع الحس، إذ العارف المحقق لم

---

(٦٨) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢٤٩–٢٥٠. والشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ١٤٣ .

(٦٩) سنن أبي داود (٢/ ٨٦) ١٥٢٢ حكم الألباني : صحيح، وكذلك حكم الشيخ شعيب الأرناؤوط، وينظر: المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ١٢٥)٢٥٠.

(٧٠) شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ زروق ١٢٣ .

(٧١) إيقاظ الهمم ١٩٥ .

(٧٢) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢٤٩–٢٥٠. والشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ١٤٣ .

تبق له حاجة يطلبها، لأن قد حصل له الغنى الأكبر، وفاز من مولاه بالحظ الأوفر، وهو معرفة مولاه، والغيبة عما سواه ... فالطلب عند العارفين ليس هو بلسان المقال، وإنما هو بلسان الحال، وهو الاضطرار، وظهور الذلة والافتقار "[٧٣] .

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: " ليس الشأن في هذا الطريق وجود الطلب، لأن ما عند الله لا يُنال بالأسباب، وإنما الشأن أن تُرزق حسن الأدب؛ لأن به تتحقق العبودية وقد قال تعالى:﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الكهف: ٧] لم يقل أكثرهم طلباً، ولا أعظمهم جداً فيه، والأدب يختلف باختلاف الأقوال والأحوال، لكنه يرجع إلى ثلاثة: إقامة الفرائض، واتباع السنن، ومجاملة الخلق، كما قال عليه السلام: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) [٧٤]وهذه هي الأصول التي من تركها حرم الوصول . ثم رأس الأداب كلها راجع للزوم وصفك مع التعلق بوصفه " [٧٥] وذلك موضوع الفقرة الآتية :

رابعاً – الاضطرار والافتقار :

الاضطرار والافتقار هما التعبير الحقيقي عن هوية الإنسان وجوهره، فإذا تحقق العبد بهما بين يدي مولاه فقد سلك طريق الوصول، وهو ما نبه عليه ابن عطاء الله رحمه الله بقوله: " ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار " ويبين ذلك الشيخ زروق رحمه الله تعالى بقوله: " لأن ذلك يقتضي الرجوع إليه بلا علة، والوقوف بين يديه على نعت المسكنة والمذلة، وخير أوقاتك وقتٌ تشهدُ فيه فاقتَك، وتُردُّ فيه إلى وجود ذِلَّتكَ... والظاهر أن الاضطرار هو فاعل الطلب، فالتقدير: ما طَلب لك الحوائجَ من الله مثل الاضطرار، ولا أسرعَ لك بالمواهب منه، لقوله تعالى: (أَمَّن يُجِيبُ المُضطَرَّ ...) ويُحتمل أن يكون المراد: لا مطلوب منك مثل الاضطرار، وذلك لأنه متيسر عليك، إذ هو وصفك، وبه تصل إلى رضوان الله مولاك " [٧٦]. وقال ابن عجيبة رحمه الله: " إنما كان طلب العارفين بلسان الحال، دون المقال، لما حققهم به من وجود معرفته حتى شهدوا مِنَّتَه في محنته، ونعمَتَه في نقمته، فإذا تجلى لهم بالقوة والجلال، تلقوه بالضعف والإذلال، فحينئذ يتجلى لهم باسمه الجميل، فيمنحهم كل جميل، وإذا تجلى لهم باسمه العزيز أو القهار، تلقوه بالذلة والافتقار فتتوارد عليهم المواهب الغزار. فإذا أردت أيها العارف أن تطلب من مولاك شيئاً جلباً أو دفعاً، فعليك بالاضطرار، والاضطرار: هو أن يكون كالغريق في البحر، أو

---

(٧٣) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٠٣ .

(٧٤) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)،تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢ ، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م، قال الترمذي حديث حسن صحيح .

(٧٥) زروق رحمه الله تعالى ، شرح الحكم ١٦٥ .

(٧٦) زروق رحمه الله تعالى ١٦٥ – ١٦٦.

الضال في التيه القفر، ولا يرى لغياثه إلا مولاه، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه، فما طَلب لك من مولاك شيء مثل اضطرارُك إليه، والوقوف بين يديه، مُتحلّياً بحلية العبيد، هنالك تنال كل ما تريد. قال الشاعر :

أَدبُ العبيدِ تَذَلُّلٌ والعبدُ لا يدعُ الأدبْ
فإذا تكامَلَ ذُلُّه نـالَ المـودةَ واقتـربْ

وقال آخر :

وما رمتُ الدخولَ إليه حتى حَلَلْتُ مَحِلَّةَ العبدِ الذليلِ
وأَغضيتُ الجفونَ على قَذَاها وصُنْتُ النفسَ عن قالٍ وقيلِ

إذا أردت ورود المواهب عليك، وهي العلوم اللدنية والأسرار الربانية، فلا شيء أسرع لك بها مثل الذلة والافتقار، بين يدي الحليم الغفار، يكون ذلك قلباً وقالباً، فينبغي لك حينئذ أن تستعد لكسب المواهب، ونيل المراتب، قال تعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة:٦٠] وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل:٦٢] وقال أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال صلى الله عليه وسم : ((إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا)) [٧٧] ." [٧٨] .

خامساً – حين يكون الطلب عبوديةً، أو دنيوية :

وقد عبر عن ذلك ابن عطاء الله رحمه الله بقوله: " لا يكن طَلَبُكَ سبباً إلى العطاء منه، فيَقلَّ فَهمُكَ عنه، وليكن طَلَبُكَ لإظهار العبودية، وقياماً بحق الربوبية" . ويشرح لنا ذلك الشيخ ابن عجيبة رحمه الله بقوله :" إن الطلب كله معلول عند ذوي الألباب، فإن كان ولا بد من الطلب فليكن إظهاراً للعبودية، وقياماً بحق الربوبية [٧٩]، فلا يكن طلبك من الحق سبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه: لأن الفهم عن الله يقتضي الاكتفاء بعلمه، والاستغناء بمعرفته، فلا يحتاج إلى شيء، ولا يتوقف على شيء... قيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال ما يقضي الله . وقال بعضهم : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب يفعل ما يشاء . ... وهذا مقام أهل النهايات، وأما أهل البدايات فيُرَخَّص لهم في طلب الحاجات، وفي كثرة الدعاء والتضرعات، فالدعاء في حقه واجب أو مندوب، وفيهم ورد الترغيب في الدعاء والإلحاح فيه، قال تعالى:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢]

---

(٧٧) رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، للامام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي (ت: ٦٧٦ هـ ، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م ص ٩٢ . قال الإمام النووي رحمه الله: رواه الترمذي، وأحمد بن حنبل .

(٧٨) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٠٣ – ٣٠٤.

(٧٩) ينظر هنا أيضا بالإضافة لشرح ابن عجيبة شرح الشيخ زروق ص ٥٥.

وورد في بعض الأخبار أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام: سلني حتى ملح عجينك، تشريعاً للضعفاء، لأن الأنبياء عليهم السلام بُعثوا معلمين للضعفاء والأقوياء" (٨٠).

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى : " الطلب على وجه التسبب هو أن ترى وقوع ما تريده ملزوماً به، أو لازماً له، بحكم سنة الله تعالى على وجه لا ينفك؛ لأن السبب ما يلزم من عدمه العدم، ومن وجوده الوجود، وذلك وإن كان يقتضيه ظاهر النصوص فباطن الحقيقة يدفعه، وهي الأصل، فوجب مراعاتها وتأويل النصوص بأن ذلك على وجه المقارنة والتوقيف؛ بأن تعتقد بأن الدعاءَ عبوديةٌ اقترنت بسبب الحاجة كاقتران الصلاة بوقتها، ورُتِّبت عليها الإجابة، كما رُتِّب ثواب الأعمال عليها، فالعطاء من وجه الفضل، والعمل لمحض العبودية، واقترانها لإظهار الحكمة ... ووجه انتفاء الفهم باعتقاد السببية؛ أنه إن أُعطيَ لم يشكرْ، وإن شَكرَ كان شُكْرُهُ ضعيفاً؛ لملاحظته سببا في التحصيل، لأن الفرحَ بالمنَّة دون استشعار سببٍ؛ أقوى منه مع استشعاره، وإن مُنع لم يرضَ، وإن رضي فلا من حيث رؤية اختيار الحق تعالى، بل من حيث رؤية تقصيره، وهو نقص، والمطلوب في ذلك هو ما ذكره: وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحق الربوبية، وهما متلازمان، بل كل واحد منهما عين الآخر، فالصدق في العبودية عين القيام بحقوق الربوبية، وبالعكس، لكن يختلف البساط " (٨١) . يتضح لنا من خلال توضيح الشيخ زروق رحمه الله تعالى أن فكرة السببية الاقترانية ((عندها لا بها)) كما أوضحها الغزالي رحمه الله وغيره من علماء أهل السنة هي التي تهيمن على اعتقاد أهل التصوف في أدق التصرفات والاعتقادات، فالفاعل الأوحد في هذا الكون هو الله عز وجل، وما تبقى إنما هي صور لإرادة الله عز وجل وعلمه وقدرته .

ثم يضيف الشيخ زروق رحمه الله: " وعلامة الصدق على هذا الوجه ثلاث: التفويض في القصد، والتوكل في التوجه، والرضا بالواقع من عطاء أو منع، فيقوم بشكر العطاء، ويقابل المنع بالقبول دون اعتراض ولا تردد، وينبني ذلك على التحقق بخالص التوحيد، وعَقْدِ القلب بالامتثال في كل وجه، وكل من كان قَصْدُهُ الظَّفَرَ بمقصوده فهو بعيد، ومن كان مقصودُه بثَّ شكوى فقره لمولاه فهو في محل القرب، فإن أضاف لذلك قصدَ المناجاة بدعائه فهو أحسن، وقال الشيخ أبو الحسن (الشاذلي رحمه الله): لا يكن حظُّك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك، دون الفرح بمناجاة مولاك، فتكون من المحجوبين" (٨٢).

سادساً– ما تطلبه بنفسك، وما تطلبه بربك :

وهو ما يشير إليه ابن عطاء الله رحمه الله: " ما توقفَ مطلبٌ أنت طالبه بربّك، ولا تيسَّر مطلبٌ أنت طالبه بنفسك " . وقال ابن عجيبة رحمه الله موضحاً: " إذا عرضت لك حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أردت أن تُقضى لك سريعاً فاطلبها بالله، ولا تطلبها بنفسك، فإنك إذا طلبتها بالله تيسر أمرها، وسَهُلَ

---

(٨٠) **إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٧٥–٣٧٦.وسوف نعرض لموضوع الدعاء والسكوت أيهما أفضل ؟ والتحقيق في ذلك إن شاء الله.**

(٨١) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ٢٠١ .**

(٨٢) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ٢٠١ .**

قضاؤها، وإن طلبتَها بنفسك صُعُبَ قضاؤُها وتعسَّر أمرُها، ولا يَتوقف ويُحبَس أمرٌ طلبتَه بربك، ولا يتيسر ويَسهُل أمرٌ طلبتَه بنفسك، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فكل من استعان بالله وصبر في طلب حاجته كانت العاقبة له، وكان من المتقين، وقال تعالى:﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه كل ما أَهمَّه، وقال صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه وهو سويد بن غفلة: ((لا تطلب الإمارة فإنك إن طلبتها وُكلت إليها، وإن أتتك من غير مسألة أُعنت عليها)) (٨٣) . (٨٤)

سابعاً– علامات الطلب بالله والطلب بالنفس :

وهذا ما يوضحه الشيخ زروق رحمه الله تعالى بقوله:" الطلب بالله تعالى هو الاستناد إليه في تيسير المطلب، وعلامته ثلاثة: التفويض في المراد، والتوكل في التحصيل، والاستقامة في التوجه، فإذا تمت هذه فالمطلب متيسر، سواء وُجِد المراد أو لم يوجد، لأن المقصود تبريد حرقة الاحتياج، ولا بقاء لها مع التفويض، لأن عاقبة الرضا في الوجود والعدم، والطلب بالنفس هو الاستناد إليها في تحصيل المراد، وعلاماته ثلاثة: حب الموافقة من غير تفويض، واعتماد الأسباب من غير توكل، والتهور في وجه التحصيل دون تقوى ولا استقامة، وكلها عائدة بالضرر في الوجود والعدم، فالمطلب وإن تيسَّر بها صورة، فهو حرمان في الحقيقة، لما فيه من نسيان الشكر، ومفارقة الحق، والاعتماد على الخلق "(٨٥). وقال في التنوير: " ما أدخلك الله فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فالمدخل الصدق أن تدخل لا بنفسك، والمخرج الصدق أيضا كذلك "(٨٦). وبحسب هذا فالرجوع إلى الله علامة الربح، والرجوع إلى النفس علامة الخسران"(٨٧).

وقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: " وعلامة الطلب بالله هو الزهد في ذلك الأمر والاشتغال بالله عنه، فإذا جاء وقته تكون بإذن الله، وعلامة الطلب بالنفس هو الحرص والبطش إليه، فإذا تعذر عليه انقبض وتغير عليه، فهذا ميزان من كان طلبه بالله، وطلبه بنفسه، فمن طلب حوائجه بالله قُضيت معنىً وإن لم تُقضَ حِساً، ومن طلب حوائجه بنفسه خاب سعيه، وضاع وقته، وإن قُضيت نهمته وحاجته ... وأما

---

(٨٣) **المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت : ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، القاهرة، دار الحرمين ج٧ ص ١٠٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط مرسلاً عن إسحاق بن عبد الله بن كيسان وهو ضعيف. يُنظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢ هـ ج ٨ ص ١٠٨ .**

(٨٤) **إيقاظ الهمم ابن عجيبة ١٠٠ – ١٠١.**

(٨٥) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ٥٧ .**

(٨٦) **التنوير في إسقاط التدبير، أحمد بن عطاء الله السكندري (ت: ٧٠٩)، تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٧ م ط١، ص ١٣٥ ، وانظر: حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ٥٧ .**

(٨٧) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ٥٧ .**

الصديقية العظمى، والولاية الكبرى فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة؛ لأنه بالله يأخذ ويترك ... والحاصل أن تصرفات العارف كلها بالله، وتصرفات غيره كلها بالنفس، ولو كانت بالله، فالعمل بالله يوجب القربة، والعمل لله يوجب المثوبة، العمل بالله صاحبه داخل الحجاب في مشاهدة الأحباب، والعمل لله يوجب الثواب من وراء الباب، العمل بالله من أهل التحقيق، والعمل لله من أهل التشريع، العمل لله من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ والعمل بالله من أهل قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: بين العمل بالله، والعمل لله ما بين الدينار والدرهم ".(٨٨).

ثامناً – الكريم لا تتخطاه الآمال:

هذا شأن الناس في تعاملهم مع كرام الناس في الحياة الدنيا، فكيف مع أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى، ومن هنا قال ابن عطاء الله رحمه الله:" لا تتعدَّ نيةُ همَّتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال " وقال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله تعالى مبيناً ذلك: " لا تتعدَّ أي لا تتجاوز، ونية الهمة: قصدها الذي تتوجه به، والهمة: القوة المنبعثة في طلب المقاصد، والآمال: قصود القاصدين، ومعنى لا تتخطاه: أي لا تتجاوز إلى غيره ... والكريم لا تتخطاه الآمال وهو يُحب أن يُسأل فيحيب السؤال "(٨٩) ثم أكد الشيخ ابن عطاء الله ذلك بحكمته التالية فقال: " **لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها إليك** " وعَقَّب ابن عجيبة بقوله: " قد علمت أن ما سوى الحق خيالٌ وهمي لا حقيقة لوجوده؛ فإذا أَنزل الله بك حاجة كفاقة أو شدة أو غير ذلك من العوارض فأنزلها بالله، واجعلها تحت مشيئة الله، وغِبْ عنها في ذكر الله، ولا تلتفت إلى ما سواه تعلقاً وتملقاً ففي الحديث: ((من لم يسأل الله يغضب عليه))(٩٠)، وقال أبو علي الدقاق: من علامة المعرفة ألا تسأل حوائجك كلها إلا من الله، قَلَّتْ أو جَلَّتْ، مثل موسى عليه السلام اشتاق إلى رؤيته فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] واحتاج يوماً إلى رغيف خبز فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص: ٢٤] ثم تعجب ابن عطاء الله رحمه الله ممن رفع أحكام الحق تعالى إلى غيره مع عجزه وضعفه فقال: ((**فكيف يُرفع إلى غيره ما كان هو له واضعاً**)) قلت (الشيخ ابن عجيبة): من قلة حياء الإنسان أن يرفع إلى غيره ما أنزله عليه الحق تعالى من أحكام قهره؛ مع علمه تعالى بإحسانه وبِرِّه، وعدم انفكاك لطفه عن قدره، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أَيِسْتُ من نفع نفسي لنفسي، فكيف لا أَيْأَسُ من نفع غيري لها، ورجوتُ اللهَ لغيري، فكيف لا أرجوه لنفسي

---

(٨٨) **إيقاظ الهمم ابن عجيبة ١٠١ – ١٠٢ .**

(٨٩) **إيقاظ الهمم ١٢٠ .**

(٩٠) **سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – ط٢، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م، ج ٥ ص ٤٥٦. قال الألباني عن الحديث: حسن .**

"[٩١]، ويزيدنا الشيخ زروق فهماً لمقاصد هذه الحكمة بقوله: " إنه هو الذي أورد عليك الاحتياج، وقد عرفتَ أنه غني قدير قوي، ومن سواه لا غنى له ولا قدرة ولا قوة، وإذا كان الأمر كذلك فرفعها للعاجز الفقير الضعيف لا يصح، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ وقال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧- ١٨]، قال بعض العارفين المكاشَفين: قيل لي في يقظة كالنوم، أو نوم كاليقظة: لا تُبْدِيَنَّ فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة بسوء أدبك، وخروجك عن حَدِّكَ في عبوديتك، وإنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إليَّ، وتتفرغ بها لديَّ، وتتوكل فيها عليَّ، سَبَكْتُكَ بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تُزَيَّفَ بعد السَّبْكِ، وَسَمْتُكَ بالفاقة، وحكمت لنفسي بالغنى، فإن وصلتَها بي وصلتك بالغنى، وإن وصلتَها بغيري قطعتُ عنك مَوادَّ معونتي، وحسمتُ أسبابَك من أسبابي طرداً لك عن بابي، فمن وَكَلْتُه إليّ مَلَكَ، ومن وَكَلْتُه إليه هَلَكَ " [٩٢] .

---

(٩١) إيقاظ الهمم ١٢١ .

(٩٢) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ٧٧ – ٧٨ .

المبحث الخامس

فلسفة السكوت

عند القوم لا تقتصر الحكمة على الكلام، بل قد تكمن الحكمة أكثر في السكوت أو الصمت، وبالتالي فإن الحكمة القائلة: ((إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب)) يمكن أن تكون صحيحة في كثير من الأحيان، إلا أن السكوت حالٌ مهم عند القوم، وحتى يكون محموداً له آدابه، وشروطه، ومعاييره ومحاذيره، ويتبدى لنا ذلك فيما يلي:

أولاً – هل الأفضل الدعاء أو السكوت والرضا بما سبق به القدر ؟

اختلف الناس في هذا فطائفة قالت: يكون صاحب دعاء بلسانه، ورضا بقلبه ليأتيَ بالأمرين جميعاً. وأخرى قالت السكوت تحت جريان الحكم أتم، والرضا بما سبق به القدر أولى. وحكى الطرطوشي عن عبد الله بن المبارك أنه قال: ((ما دعوت الله منذ خمسين سنة، ولا أريد أن يدعو لي أحد)) [٩٣]. واحتجوا بان امرأة بها لَمَمٌ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها الله عز وجل، فقال: ((أتصبرين ولا حساب عليك)) [٩٤] وسأله الأنصار أن يدعوَ اللهَ أن يكشفَ الحُمَّى عنهم فقال: ((أوْ تصبرون فتكون لكم طهراً)) [٩٥] . وروى صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: ((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)) [٩٦]. وقال القشيري رحمه الله تعالى: الأولى أن يُقال: " إذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى به، وإذا وجد في قلبه إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم " [٩٧].

قال ابن عجيبة: "وقال الواسطي: ما جرى لك في الأزل خير من معارضة الوقت، يعني بالطلب للحظ ... وذلك لأن الله سبحانه ليس بغافل حتى يُذَكَّر، بل هو عليم بخفيات أمورك، فيأتيك منها ما قسم لك، كما بين ذلك بقوله: إنما يُذَكَّرُ من يجوز عليه الإغفال، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

---

(٩٣) الرسالة القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت:٤٦٥)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م وضع حواشيه: خليل المنصور، د.ط ، ص ٣٠١.

(٩٤) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية ، ط٢، ج١٠ ص ٣٢٦ . ويُنظر: دلائل النبوة، الإمام البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ)، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور / عبد المعطى قلعجى، بيروت، دار الكتب العلمية ـ ودار الريان للتراث،ط١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، ج ٦ ص ١٦٠ .

(٩٥) يُنظر: عون المريد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة اهل السنة والجماعة، عبد الكريم تتان، محمد أديب الكيلاني ، دمشق ، دار البشائر، ط٢، ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩م. ج٢ ص ٩٥٢ . والحديث لم أجد له أصلاً في كتب السنة .

(٩٦) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)،تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م، ج ٢ ص ٩٣ .

(٩٧) إيقاظ الهمم ٣٨٨ ويُنظر: الرسالة القشيرية: ص ٢٩٧ .

[البقرة: ٧٤] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ولا يحتاج إلى تنبيه؛ لأنه لا يهملك فيما هو من قسمتك، كما بينه بقوله: وإنما ينبه من يجوز عليه الإهمال، والحق تعالى لا يجوز عليه الإهمال لكمال قدرته، وإحاطة علمه، ولكن حكمته اقتضت ارتباط الأسباب والعلل، وتقديم الأشياء وتأخيرها، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] فمن كمل يقينه اكتفى بتدبير الحق عن تدبيره، واستغنى بعلم الله عن استعجاله، ورضي بتصريف الحق فيما يفعل، فيكون إبراهيمياً حنيفياً، ولا شك أن من كان على ملة إبراهيم عليه السلام اقتدى به، وقد كان بين السماء والأرض حين رُميَ به، فاستغنى بعلم الله عن سؤاله، فكانت حالة سيدنا إبراهيم عليه السلام في ذلك الوقت الاستغراق في الحقيقة، فلما رُدَّ للشرائع دعا فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾[إبراهيم: ٤١] ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الشعراء: ٨٣]"[٩٨].

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:"كما لا يصح أن يكون الطلب سبباً؛ لا يصح أن يكون تذكيراً ولا تنبيهاً، لأنك إن قلت بالسببية فَجَلَّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل، وإن قلت تذكيراً فالتذكير للإغفال ولا إغفال، وإن قلت تنبيهاً فالتنبيه للإهمال ولا إهمال، وكيف يصح شيء من ذلك وهو غني كريم، رحيم عالم بما قلَّ وجلَّ من أحوالك، لا تعتريه العوارض، لا تطرأ عليه الآفات، إذ ذلك كله عليه تعالى محال، والقصد بالجميع هو إظهار الفاقة؛ لأنها محط الفوايد والعوايد، كما نبه عليه المؤلف (ابن عطاء الله) بقوله:(ورود الفاقات أعياد المريدين)." [٩٩].

قال الزبيدي: " والصواب أن الدعاء أولى مطلقاً وعليه الجمهور، فإنه نفسُه عبادة، والإتيان بالعبادة أولى من تركها، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((الدعاء هو العبادة)) [١٠٠] ثم قرأ قوله تعالى:﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقد دعا صلى الله عليه وسلم بكشف البلايا والشدائد ... ثم إن الدعاء يستدعي حضور القلب مع الله بالتضرع والاستكانة وإظهار العبودية، والإقرار بالافتقار، والاعتراف بالربوبية، وذلك هو منتهى العبادات وخلاصتها، لذا كان الدعاء مخ العبادة، ومخ كل شيء خالصه، والاشتغال بذكر الحق حال الدعاء يوجب مقام الهيبة في القلوب، والإثابة في الطاعة، والانقلاب عن المعصية، ولزوم الباب يستدعي الإذن في الدخول، وقد قيل: ((من أدمنَ قرعَ الباب ولجَّ ولجَ)) ويقال: الإذن في الدعاء خير من العطاء، هذا وملازمة الدعاء رافعة للبلاء والشقاء كما أخبر الله تعالى عن خليله ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨] " [١٠١] .

---

(٩٨) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٨٧ – ٣٨٨ .

(٩٩) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ٢٠٨ .

(١٠٠) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)٣٨٢٨ –باب فضل الدعاء. [حكم الألباني] صحيح . وسنن أبي داود (٢/ ٧٦)١٤٧٩– سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٢١١)٢٩٦٩ – قال أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى : «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» تعليق شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح . والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٦٧)١٨٠٢ .

(١٠١) عبد الكريم تتان ومحمد أديب الكيلاني" عون المريد لشرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة " ٢ / ٩٥٢ – ٩٥٣.

" وقيل: الدعاء سُلَّم المذنبين، وقيل: الدعاء المراسلة، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعده . وقيل: لسانُ المذنبينَ دعاؤُهم . وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: إذا بكى المذنب فقد راسل الله عز وجل ... وقيل: الدعاء لسان الاشتياق إلى الحبيب. وقيل: الإذن في الدعاء خير للعبد من العطاء. وقال الكتاني: لم يفتح الله تعالى لسان المؤمن بالمعذرة، إلا لفتح باب المغفرة ... وقيل: الدعاء يوجب الحضور، والعطاء يوجب الصرف، والمقام على الباب أتم من الانصراف بالمثاب. وقيل: الدعاء مواجهةُ الحقِّ تعالى بلسان الحياء. وقيل: شرط الدعاء الوقوف مع القضا بوصف الرضا. وقيل: كيف تنتظر إجابة الدعوة وقد سددت طريقها بالهفوة؟!" (١٠٢).

ثانياً – ربما دلَّهُمُ الأدبُ على ترك الطلب :

الأدب مع الله عز وجل هو المقدَّم دائما لدى القوم، وهو ما عبر عنه الشيخ ابن عطاء الله رحمه الله بقوله: " ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسألته". قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى موضحاً ذلك: "في قوله: (ربما) إثبات للشيء وقسيمه بطريق التجوز، فكما قد يدلهم الأدب على ترك الطلب قد يدلهم على وجوده، وقد يدلهم على التعريض، وهو بينهما، فهي إذن ثلاثة : طلب: وموقفه عند جريان العوائد، وملاحظة الأسباب، وظهور أثر الكسب والاكتساب، وتعريض: وموقفه عند تعذر الأسباب، ورجحان الحقيقة بلمعان نور المشاهدة الموجب لملاحظة العبودية في عين تعظيم الربوبية، وسكوت: وهو عند غلبة الحقيقة ونفي شواهد الخليقة، وقد وقعت هذه كلها من أنبيائه عليهم السلام في أحوال مختلفة: هذا إبراهيم عليه السلام سأل لسان صدق في الآخرين، وغيره من مصالح الدين والدنيا، وعرّض في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقال عندما زُجَّ به في المنجنيق: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فلم يسأل ولم يُعرِّض، اكتفاء بعلمه تعالى، وذلك عند تعذر الأسباب، وذهاب شواهد الاكتساب، وإنما يكون السكوت أدباً بشرط ذكره المؤلف (صاحب الحكم) إذ قال: اعتماداً على قسمته، واشتغالاً بذكره عن مسألته"(١٠٣).

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: " لأن الغالب على العارفين وأهل الفناء السكوتُ والسكونُ تحت مجاري الأقدار، فصدور الطلب منهم قليل، لأن العارف فانٍ عن نفسه، غائبٍ عن حِسِّه، ليس له عن نفسه أخبار، ولا مع غير الله قرار، فلا يُتصوَّر منه سؤال، ولا فوات مأمول ((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)) (١٠٤) " (١٠٥). " والحاصل : أن العبد ما دام غائباً عن نفسه، فانٍ في

---

(١٠٢) **الرسالة القشيرية ٣٠٠ – ٣٠١.**

(١٠٣) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ٢٠٧.**

.

(١٠٤) **سبق تخريج الحديث قبل قليل .**

(١٠٥) **إيقاظ الهمم ٣٨٧ .**

شهود ربه، منقطعاً عن حسه، لا يُتصوَّر منه طلبٌ أصلا؛ إذ الطلب يقتضي وجود الاثنينية، والغرض أنه غريق في بحر الوحدة، فطلبه حينئذ سوء أدب في حقه، فإن رُدَّ إلى الشعور بنفسه، وهو مقام البقاء قد يُتصوَّر منه السؤال على وجه العبودية لا على وجه الاقتضاء والطلب. ثم بين مستندهم في ترك الطلب فقال: اعتماداً على قسمته واشتغالاً بذكره عن مسألته"(١٠٦).

ثالثاً – لا توجه قلبك إلا إليه :

يعبر عن هذا المقام ابن عطاء الله رحمه الله بقوله: "طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك منه". وقال ابن عجيبة رحمه الله موضحاً: " وأما طلبك له فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك، فلو حضرَ قلبُك وغبتَ عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره .

أَراكَ تسألُ عن نجدٍ وأنتَ بها وعن تهامةَ هذا فِعْلُ مُتّهِمِ

وقال ابن المرحّل السني :

ومِنْ عَجَبٍ أنِّي أَحِنُّ إليهم وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهمْ بسوادها ويشكو النَّوى قلبي وهم بين أضلعي

وللرفاعي :

قالوا أتنسى الذي تهوى فقلت لهم ياقوم من هو روحي كيف أنساه
وكيف أنساه والأشيا به حَسُنَتْ من العجائب ينسى العبدُ مولاه
ما غابَ عني ولكنْ لستُ أُبْصِرُهُ إلاَّ وقلتُ جَهاراً قلْ هوَ اللهُ

وأما طلبك لغيره: أي لمعرفة غيره فَلِقِلّة حَيائِكَ منه، وعَدَمِ أُنْسِكَ به، أما وجهُ قِلةِ حَيائِكَ منه فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة، ومثال ذلك كمن كان في حضرة الملِك، والملكُ مُقبلٌ عليه ثم يعجل هو يريد الخروج منها، ويلتفتُ إلى غيره، فهذا يدل على قلة حيائه وعدم اعتنائه بالملِك، فهو حَقيقٌ بأن يُطرد من الباب إلى سياسة الدوابّ...وأما وجه عدم أُنْسِكَ به فلأنك لو أَنِسْتَ به لاستَوْحَشْتَ من خَلْقِه، فلا يُتَصَوَّرُ منك طلبُ معرفتهم وأنت تَفِرُّ منهم ، فإذا آنَسَكَ به أَوْحَشَكَ من خَلْقِه، وبالعكس، والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس ... وأما طَلَبُكَ من غيره فلوجود بُعْدِكَ عنه، إذ لو تَحَقَّقْتَ بِقُرْبِه منك وهو كريم، ما احتَجْتَ إلى سؤال غيره وهو لئيم، وسيأتي في المناجاة: أم كيف يُطلب من غيرك وأنت ما قطعت عادة الامتنان ؟" (١٠٧).

---

(١٠٦) **إيقاظ الهمم ٣٨٧** .

.

(١٠٧) **إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٩٤-٩٦**.

ويضيف الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: "طلبك منه يكون بالتضرع والابتهال، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال، وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال، وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال. وهي أربعة أنواعٍ كلها مَدْخُولَة: أما طلبك منه فلوجود تُهْمتِكَ له، لأنك إنما طلبتَه مخافة أن يُهملَك أو يغفلَ عنك، فإنما يُنبَّه من يجوز منه الإغفال، وإنما يُذكَّر من يمكن منه الإهمال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال صلى الله عليه وسلم : ((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)) (١٠٨). فالسكوت تحت مجاري الأقدار أفضل عند العارفين من التضرع والابتهال، وكان شيخ شيوخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: الفقير الصادق لم تبق له حالة يطلبها، وإن كان ولا بد من الطلب فليطلب المعرفة. قلت (ابن عجيبة): وإذا ورد منهم الدعاء فإنما هو عبودية وحكمة لا طلباً للقسمة، إذْ ما قَسَمَ لك واصلٌ إليك، ولو سألتَه أن يمنعَكَه ما أجابَك "(١٠٩) .

رابعاً: العناية القديمة والطلب الحادث :

عناية الله عز وجل بعباده قديمة منذ الأزل، ولذلك فالدعاء إنما يكون عبودية وتضرعاً، لا سبباً في العطاء، وهو ما يبينه ابن عطاء الله رحمه الله بقوله: " كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق، جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل " . ويشرح لنا ذلك ابن عجيبة رحمه الله تعالى بقوله: " العطاء السابق هو ما تَعلَّقَ به علمُه القديم قبل أن تظهرَ تجلياتُ الأكوان، ولا شك أن الله سبحانه قدَّرَ في الأزل ما كان وما يكون إلى أبد الأبد، فقد قسم الأرزاق الحسية والمعنوية وقدر الآجال، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٖ﴾ [الرعد: ٨] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]وقال تعالى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾ [فاطر: ١١]وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ [آل عمران: ١٤٥] فإذا علمت أيها الإنسان أن القضاء والقدر قد سبق برزقك وأجلك، وأنه قد سبقت قسمتُك وجودَك فماذا تطلب؟ وإذا طلبت فكيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق؟ إذ قد سبق منه العطاءُ قبل أن يكون منك الطلب، جلّ أي عَظُم وتعالى حكمُ الأزل القديم أن يضاف إلى العلل والأسباب الحادثة، إذ محال أن يتقدم الحادث على القديم لا وجوداً ولا حكماً ... ومما يدلك على أن طلبك ليس سببا في عطائه لك وجود عنايته بك قبل ظهورك الذي أشار إليه بقوله: عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته ؟! لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال، ووجود النوال"(١١٠).

---

(١٠٨) **سبق تخريجه** .

(١٠٩) **إيقاظ الهمم ٩٤ – ٩٥** .

.

(١١٠) **إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٧٧–٣٧٩** .

ويضيف الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: " مما تواترت به الأخبار والنقول ووافق المنقول والمعقول، أن ما شاء الله يكون، وما لم يشأ ربنا لم يكن، ومشيئته تعالى قديمة لأنها عينُ إرادته، وإرادتُه على وفق علمه، وعلمه قديم، فكلُّ ما يبرز في عالم الشهادة فإنما هو ما قَدَّره الحق في عالم الغيب ((جفت الأقلام وطويت الصحف))قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] أي نُظهرها، فلا سعادة ولا شقاء إلا وقد سبق بها القدر والقضاء، السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه، وقد تقدم قوله: ما من نفَسٍ تُبديه إلا وله قدر فيك يمضيه . فإذا علمت ذلك أيها الإنسان اكتفيتَ بعلمه السابق، عن طلبك اللاحق، وبقي طلبُك عبوديةً، وأدباً مع الربوبية، وإلا فعنايته فيك سابقةٌ على وجودك، لا لشيء منك تستحق به عنايتَه ومنَّتَه، وأين كنت حين واجهتك عنايته في أزله، حين سبقت لك منه العناية، وكتبك في جملة أهل الرعاية والهداية ؟ ثم لمَّا استنطقكَ يوم الميثاق أقررتَ بربوبيته، وأين كنت حين قابلتكَ رعايتُه وحفظُه وأنت في ظلمة الأحشاء حين أجرى عليك رزقه من عِرْق الدم، وحفظكَ في ذلك المستودع حتى اشتدتْ أعضاؤُكَ وقويتْ أركانُك؟ فأخرجكَ إلى رِفْقِهِ، وما يَسَّرَ لك من رزقه، لم يكن في أزله حين واجهتْكَ عنايتُه، ولا في مستودعك في الرحم حين قابلتْكَ رعايتُه إخلاصُ أعمال، ولا وجودُ احوالٍ تستحقُّ بهما وجودَ النوال، بل لم يكن في ذلك الوقت إلا محضُ الإفضال وعظيمُ النوال" . (١١١)

والخلاصة كما يقررها الشيخ ابن عجيبة رحمه الله بقوله: " وحاصل آداب السؤال والطلب أنه ينبغي أن يكون عبودية لا سبباً في العطاء، إذ قد سبقتْ قسمتُك في الأزل قبل أن يكون منك طلبٌ، فعنايته سابقة ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٤]، لكن الحكمة تقتضي وجود العمل، فوجود العمل أمارة على خصوصية الأزل، مع توقف ذلك على المشيئة؛ لأنها يستند إليها كل شيء، ولا تستند هي لشيء، فلزم السكون والأدب حتى في ترك الطلب". (١١٢) .

---

(١١١) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٧٧-٣٧٩ .

(١١٢) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٣٨٦.

المبحث السادس

مفهوم الإجابة

لا تنحصر إجابة الدعاء فقط في تحقيق الهدف المباشر الذي يرنو إليه الداعي، بل إن الله عز وجل هو العليم الخبير بما يُصلِح عبده، وما يَصلُح له، ومتى يجيبه، وكيف يجيبه؟ فإجابة الدعاء يجب أن ينتبه العبد إلى ارتباطها بصفات الله عز وجل: كالعلم، والقدرة، والإرادة، واللطف، والرحمة، فالماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة لله عز وجل سواء، وهو يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، ويعلم سبحانه النتائج والمآلات، والأسباب، والمقدمات، ولذلك فواجب العبد –كما مر مراراً – هو الدعاء، ويُفوِّض ما تبقى لله عز وجل كما قال الله جلَّ وعلا معلماً لنا ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤]، وكما قال سيدنا عمر رضي الله عنه (إني والله لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء) كما سيمر معنا بعد قليل.

أولاً – الإجابة والمشيئة :

مما ينبغي أن يُعلمَ أن الدعاء مُجابٌ إن شاء الله تعالى، لكن لا يُفهم من الآيات أن الإجابةَ تكون بحسب ما يريد الداعي، وفي الوقت الذي يريد، لأن إجابة الدعاء مرتبطة بمشيئة الله عز وجل، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يُعجِّلَ له دعوتَه، وإما أن يَدخرَها له في الآخرة، وإمَّا أَنْ يَصْرِفَ عنه من السوء مثلها)). قالوا: إذن نكثر ! قال: الله أكثر))[١١٣].

فقد تكون الإجابة في الدنيا بنفس الغرض المطلوب، وقد تكون بغيره، أو دفعاً أو رفعاً للبلاء، أو في الآخرة ادخاراً لثواب الله عز وجل، فالإجابة تتنوع: فتارة يقع المطلوب على الفور، وأخرى يتأخر لحكمة، وتارة الإجابة بغير المطلوب؛ حيث يكون في المطلوب مصلحة ناجزة، أو يكون في غير المطلوب الذي وقع ما هو أصلح من المطلوب المدعو به. فالربُّ ربٌ، والعبد عبدٌ، وهناك فارقٌ بين المخلوق والخالق، ويجب على الإنسان أن يتعامل مع ربه جل وعلا على أنه عبد له من أخص صفاته: العبودية، والتذلل، والتضرع، ومن واجبه أن يحاسبَ نفسَه دائماً، ويجدد التوبة دائماً، ويتوجه إلى ربه بالدعاء على سبيل العبودية المحضة، ويُسلِّمَ أمر الإجابة إليه، فهو سبحانه أدرى بما يصلحه في الدنيا والآخرة، وأن يدعو الله عز وجل وهو موقنٌ بالإجابة،كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة))[١١٤]، عليه

---

(١١٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٧٠)١٨١٦ – قال الحاكم رحمه الله : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَيْنِ لَمْ يُخَرِّجَاهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ الرِّفَاعِيِّ " .

(١١٤) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥١٧)٣٤٧٩ – حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْجُمَحِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا صَالِحٌ الْمُرِّيُّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا

أن يدعو، والباقي يتكفل به خالقه سبحانه وتعالى، وهو ما عبر عنه أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه حين قال: ((إني لا أحمل هم الإجابة، ولكني أحمل هم الدعاء)) [١١٥]. فهذه صفة العبد، وليس من حقه أن يزاحمَ ربَّه سبحانه في تدبيره، واختياره، وقدرته وكبريائه.

ثانياً – لا تيأس ولا تعجل :

ويقول ابن عطاء الله رحمه الله: " لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح بالدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد""[١١٦]. ويشرح لنا ذلك ابن عجيبة رحمه الله بقوله: " اعلم أن من أسمائه تعالى القيوم، وهو مبالغة في القيام، فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه، وعَيَّن لكل مظهر وقتاً محدوداً، وأجلا معلوماً، ولكل واحد شكلاً معلوماً، ورزقاً مقسوماً قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:١٤] فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله، واقنع بعلم الله، ولا تحرص ففي الحرص تعبٌ ومَذَلَّةٌ ... وإن كان ولا بد من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لا طلباً للحظ، فإن تركتَ الحظوظ صُبَّتْ عليك الحظوظ، وإن غلب عليك واردُ الطلب وطلبت شيئاً ثم تأخَّرَ عنك وقتُ العطاء فيه؛ فلا تتهم الله في وعده حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]ولا تيأس من نواله ورِفْدِه، فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا والآخرة، وقد يمنعك لطفاً بك؛ لكون ذلك المطلب لا يليق بك،كما قال الشيخ أبو الحسن: اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ؟! وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] ما موصولة: أي ويختار الأمر الذي لهم فيه خيرتهم، وقد يكون أجابك وعَيَّنَ لذلك وقتاً هو أصلح لك وأنفع، فيعطيك ذلك في الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد، وقد يؤخر ذلك لدار الكرامة والبقاء، وهو خير لك وأبقى. وفي الحديث ((ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث خصال: إما أن تُعجَّلَ له طِلْبَتُه، وإما أن يُدَّخَر له ثوابها، وإما أن يُصرَف عنه من السوء مثلها)) [١١٧]، وقال الشيخ عبد العزيز المهدوي: من لم يكن في دعائه تاركاً لاختياره راضياً باختيار الحق تعالى فهو مُستدرَج، ممن قيل له: ((اقضوا حاجته فإني أكره أن

أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»: قال الإمام الترمذي رحمه الله : «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ» [حكم الألباني] : حسن. والمستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٧٠) رقم : ١٨١٧ .

(١١٥) ذكره ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٧١٣ تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل – مكتبة الرشد ، الرياض، ط٣ / ١٩٩٣ م ١٤١٣ هـ .

(١١٦) إيقاظ الهمم ص ٤٠ والأفضل الإحالة إلى كتاب الحكم نفسه . ينظر أيضا : الحكم العطائية شرح وتحليل للدكتور البوطي ١/ ١٠١ .

(١١٧) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٧٠)١٨١٦ – قال الحاكم رحمه الله : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَيْنِ لَمْ يُخَرِّجَاهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ الرِّفَاعِيِّ " .

أسمع صوته))، فإن كان مع اختيار الحق لا مع اختيار نفسه كان مجاباً، وإن لم يُعط، والأعمال بخواتمها." (١١٨).

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى موضحاً ما يقصده الشيخ ابن عطاء الله:"الإلحاح: التكرار في الدعاء لحاجة من وجه واحد على سبيل الطلب، وهو مطلوب في الدعاء، والإجابة مضمونة بمطلق الدعاء، فإذا قُمتَ بما طلب منك من الدعاء والإلحاح فيه فلا تيأس من الإجابة؛ لأن يأسك ناشئ عن رؤية السببية بدعائك واجتهادك في حاجتك، إذ صرَفَكَ تَأَخُّرُها عن باب مولاك، فقصَّرتَ في المطلوب بالدعاء، الذي هو إظهار الفاقة ودوام الحضور بالمناجاة فافهم. والناس ثلاثة: رجل قصد مولاه بالتفويض فحصل له الرضا عنه، ودوام التعلق به في الوجود والعدم، فهذا لا ينصرف لطول تأخر ولا لغيره، ورجل وقف بباب مولاه واثقاً بوعده، وناظراً لحكمه، فهو يرجع على نفسه برؤية التقصير، وفقد الشروط عند التأخر، فيؤديه ذلك إلى اليأس تارة، وإلى الرجاء تارة أخرى، وإن تيسر مراده عظمت الشريعة في قلبه، ورجل وقف بالباب مصحوباً بالعلل، منوطاً بالتعذر، ملفوفاً بالغفلة، طالباً للغرض، دون تعريج على حكم ولا حكمة، وهذا ربما تشكك في الوعد، أو وقع في الحيرة، أو دان باليأس لا لسبب، نسأل الله العافية . (١١٩)

وقال أيضاً الشيخ زروق رحمه الله تعالى:" وذلك كله مُضمَّن في قوله تعالى: ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ [غافر: ٦٠] فضمن الإجابة بوعده، وجعلها مطلقة إذ لم يقل بعين ما طلبتم، ولا متى شئتم، ولا كيف شئتم وأكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((ما من داع إلا وهو بين إحدى ثلاث: إما أن تعجل له طلبته، أو يؤخر له ثوابها، أو يصرف عنه من السوء مثلها)) (١٢٠) ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي)) (١٢١) . وروي أنه كان بين إجابة موسى وهارون عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ أربعون سنة، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله تعالى:﴿ فاستقيما ﴾ أي: على عدم الاستعجال﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أي الذين يستعجلون في الدعاء " (١٢٢).

ثم يضيف الشيخ رحمه الله: " وإنما جعل الإجابة فيما اختاره تعالى عيناً ووقتاً لوجوه ثلاثة: أحدها : رفقاً بعبده وعناية، لأنه كريم رحيم عليم، والكريم إذا سأله من يَعزُّ عليه أعطاه أفضلَ ما علمَه له، والعبد جاهل بالصلاح والأصلح؛ فقد يحبُّ الشيءَ وهو شرٌّ له، ويكره الشيء وهو خيرٌ له فافهم. الثاني: لأن

---

(١١٨) **إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٤٠-٤١.**

(١١٩) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ٣٠ .**

(١٢٠) **مر تخريجه قبل قليل .**

(١٢١)صحيح البخاري (٨/ ٧٤)٦٣٤٠، كتاب: الدعوات، باب:يستجاب للعبد ما لم يعجل، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٥)٩٠-(٢٧٣٥) كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب:بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، وللاطلاع على روايات الحديث المتعددة ينظر كتاب (الدعاء) للطبراني ص ٨١٨ .

(١٢٢) **الشيخ زروق ٣٠ .**

ذلك أبقى لأحكام العبودية في نظر العبد، وأقوى في ظهور سطوة الربوبية، إذ لو كانت الإجابة بالدعاء على وفق المراد ضمناً لكان نفس دعائه تحكماً على الله وذلك باطل فافهم . الثالث: لأن الدعاء عبودية سرها إظهار الفاقة، ولو كانت الإجابة بعين المراد حتماً لما صحت فاقة في عين الطلب، فبطل سر التكليف به، ومعنى الاضطرار المطلوب فيه، فافهم " [١٢٣] .

ثالثاً – عالج الشك باليقين (الإيمان) :

لا يخلو الإنسان العاقل من الشكوك لأن هذا أحد أشكال التكليف، إلا أن هذا الشك يجب أن يُعالَجَ دائماً بالاعتصام بالإيمان والدعاء وقراءة القرآن والذكر واللجوء إلى الله عز وجل، وقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ– رضي الله عنه – قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» [١٢٤]ولذلك يقول ابن عطاء الله رحمه الله تعالى:" لا يُشكِّكَنَّك في الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه، لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك، وإخماداً لنور سريرتك" . قال ابن عجيبة رحمه الله شارحاً: " إذا وعدك الحق تعالى بشيء على لسان الوحي أو الإلهام من نبي أو ولي أو تجلٍّ قوي فلا تشكَّ أيها المريد في ذلك الوعد إن كنت صِدِّيقاً، فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع، وقد يَطُولُ، وقد يَقْصُرُ، فلا تشكَّ في وقوعه، وإن طال زمنُه، وقد كان دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله: ﴿ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾ [يونس:٨٨] أربعون سنة على ما قيل، وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشكَّ في صدق ذلك الوعد، فقد يكون ذلك مترتباً على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبي أو الولي؛ لتظهر قهرية عزته وحكمته، وتأمل قضية يونس عليه السلام حيث أخبر قومَه بالعذاب لما أُخبر به وفَرَّ عنهم، وكان ذلك متوقفاً على عدم إسلامهم، فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب، وكذلك قضية سيدنا نوح عليه السلام، حيث قال: ﴿ **رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [هود: ٤٥] فوقف مع ظاهر العموم، في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [هود: ٤٦] ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك، وإن فهمتَ العمومَ فَعِلْمُنا مُتَّسِع، ولهذا السرِّ الخفيِّ كان الرسل عليهم الصلاة والسلام وأكابر الصديقين لا يقفون مع ظاهر الوعد، فلا يزول اضطرارهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، بل ينظرون لسعة علمه تعالى، ونفوذ قهره، ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ **وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ** ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقول سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿ **مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا** ﴾ أي ملة الكفر ﴿ **إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ**

---

(١٢٣) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله ص ٣٠ – ٣١.

(١٢٤) صحيح مسلم (١/ ١١٩)٢٠٩ – (١٣٢) .

.

عِلْمًا ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقضية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه وقال: ((اللهم عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد بعد اليوم ﴾ فقال له الصديق: حسبك يا رسول الله، فإن الله منجز لك ما وعدك[١٢٥]، فنظرُ المصطفى أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد، ووقفَ الصديق مع الظاهر، فكلٌ على صواب، والنبي صلى الله عليه وسلم أوسع نظراً وأكمل عقلاً. وأما قضية الحديبية فلم يتعين فيها زمن الوعد لقوله تعالى: ﴿ **فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا**﴾ [الفتح: ٢٧] وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمر حين قال له ألم تخبرنا أن ندخل مكة فقال له: أقلت لك هذا العام ؟ فقال لا، فقال: إنك داخلها ومطوف بها [١٢٦]." [١٢٧].

وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:" فقد وعد الحق سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر في أحد والأحزاب ودخول مكة، وستر شرط ذلك وهو الذلة التي اقتضت حكمته ترتب النصر عليها دائماً، حتى أظهرها في معرض المِنَّة والتنبيه إذ قال عز من قائل: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال عز وعلا : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا**﴾ [التوبة: ٢٥] وقال عليه الصلاة والسلام لابن عباس في وصيته: ((واعلم أن النصر مع الذل)) [١٢٨] وهو سر الاضطرار المشروط في الإجابة بعين المقصد إذ قال: ﴿ **وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**﴾ [النمل: ٦٢] فافهم ".[١٢٩].

رابعاً – العطاءات المعجلة التي لا يشعر بها العبد :

عطاء الله دائم ومستمر ولا ينقطع، تخيل لو قطع الله عز وجل عنك النَفَس، أو الماء أو الهواء أو الغذاء أو العافية، فإنك ستبذل كل ما تملك من أجل شهقة هواء، أو جرعة ماء، ولو منعك الخلاء ستبذل الغالي والرخيص وملك الدنيا كله فقط لتقضي حاجتك [١٣٠].لكن العبد لا يشعر بعطاء الله عز وجل له

---

(١٢٥) يُنظر: صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٤)٥٨ – (١٧٦٣) .

(١٢٦) صحيح البخاري (٣/ ١٩٣)٢٧٣١ – رقم الحديث في طبعة البغا:٢٥٨١ (٢/٩٧٤)

(١٢٧) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٤٣ –٤٤.

(١٢٨) لم أجد رواية واعلم أن النصر مع الذل والموجود في الروايات المتعددة وان النصر مع الصبر ، يُنظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٢٤)٦٣٠٤ .

(١٢٩) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ٣٢.

(١٣٠) تُروى قصة عن هارون الرشيد فيها من العبرة الكثير لمن يعتبر، وهي أنه كان ذات يوم في الصيد فشرد به فرسه في الصحراء فأصابه عطش شديد فمر برجل متعبد فعرفه بنفسه وأخبره بما أصابه من العطش، فجاءه العابد بكأس ماء وقبل أن يشرب قال له: بكم تشتري هذا الكأس لو مُنعته؟ قال بنصف ملكي، فلما شرب وارتوى، قال له العابد: لو مُنعت إخراجه بكم تشتري إخراجه؟ قال بالنصف الآخر، فقال له العابد: إذن ملكك كله لا يساوي كأس ماء، قلت : الحقيقة أنه يشتري إحدى النعمتين بملكه كله لو منعها، فلو شارف على الموت فإنه يبذل كل ملكه لينقذ نفسه من الموت، وكذلك لو منع إخراجه يشتريه بكل ملكه بلا شك . يُنظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت: ٩١١هـ)،تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ج١ ص ٢١٦ .

إلا إذا فقده، عندئذ يبدأ بالجؤار والتضرع والعويل، فإذا ما تحقق له مراده نسي ما كان يدعو إليه، كما قال الله عز وجل ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس:١٢] وهذا معنى قول ابن عطاء الله رحمه الله: "جل ربنا أن يعامله العبدُ نقداً، فيجازيه نسيئةً " .قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى : " بل جزاؤه كله معجل، وإن كان ما في الآخرة مؤجلاً، فإن المأتيّ قطعاً كالموجود في الحال، والتنعم بانتظار الفائدة زيادة في الإحسان بها، وإنما كان الأمر كما ذكر لثلاثة أوجه: أحدها أنه تعالى كريم، والكريم إذا أعطى كمّل، وإذا خوّل نوّل، وإذا تفضل وصّل . والثاني : أن العبد فقير محتاج في الحال والمآل، فيقدم له ما يحتاج إليه من معارف وأحوال وغيرها، ويدخر له ما يستغني عنه من ثواب وحسن مآب. والثالث : أن مراده تعالى من عباده المخلصين إفراد قلوبهم له، فيعينهم على ذلك بما يوجهه لهم، ولو لم يكن من جزائه على الطاعة إلا وجود التخصيص بالتوفيق لكان كافيا، وهذا ما نبه إليه الشيخ ابن عطاء الله بقوله: كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا " [١٣١]. وقال ابن عجيبة رحمه الله:" النقد ما كان معجلاً، والنسيئة ما كان مؤخراً، ومن شأن الكريم إذا اشترى أن ينجز نقده، ويزيد رفده، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا، فعوضنا بها الجنة، فمن باع نفسه وماله ونقدهما وسلَّمهما إليه، عوضه جنة المعارف عاجلاً، وزاده جنة الزخارف آجلاً، مع ما يتحفه به من أنواع النعيم، ودوام الشهود والنظر إلى وجهه الكريم... والذي عجل له سبحانه وتعالى في هذه الدار أمور :

منها : ما يدفع عنه من المضار، ويجلب له من المنافع والمسارّ لقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾[الطلاق:٣] وقال تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس: ٦٢] وقد يتعدى ذلك إلى عقبه كما تقدم .

ومنها: ما يُشرق عليه من الأنوار، ويُكشف لقلبه من الأسرار، وهي أنوار التوجه وأنوار المواجهة، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢٩] وهو نور يُفرّق بين الحق والباطل، قال تعالى:﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** ﴾ [البقرة:٢٨٢] وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧] يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى، ومن ظلمة الكون إلى نور المُكوّن .

ومنها : التوفيق والهداية لها قبل عملها، حتى جعلك أهلا للوقوف بين يديه، وهو الذي أبانه بقوله: (كفى من جزائه إياك على الطاعة ان رضيك لها أهلا)؛ لأن المِلك لا يدعو لخدمته إلا من يريد أن يُكرمه،

---

(١٣١) **حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق ص ١٣٧.**

ولا يُدخل لحضرته إلا من يريد أن يُعظمه، ولا يُنسَبُ له إلا أهل الفضل والتكرمة: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾[النور: ٢١] فالتوفيق لها أعظم مِنَّة، وأكبر جزاءًا على وجودها، لأنها تحقق للعبد ثلاثاً: أولها: تصحيح النسبة لمولاه بوجه ما. الثاني: وجود الإقبال عليه بصورة ما. الثالث: إقامة رسم العبودية في الجملة، والله أعلم. قاله الشيخ زروق [١٣٢]..

ومنها: ما يرد على قلبه حال عملها من المؤانسة به والقرب له، وهو الذي ذكره بقوله: (كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته) [١٣٣]. وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: "يعني حال التلبس بها من حلاوة المناجاة، ولذات المصافاة، وسنيّ الحالات، حتى قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، ولا إلى شيء منها، وهي طاعة الله عز وجل، وقال غيره : ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التعلق في قلوبهم بالليل من لذَّات المناجاة. وفي الحديث أن رجلين من الصحابة كانا في حرس المسلمين من الكفار، فقام أحدهما يصلي، ونام الآخر، فكبّد كافرٌ قوسَه وضرب المصلّي، فأصابه السهمُ فلم يَخْفِل به، ومضى في صلاته، فعاوده بثان كذلك، ثم ثالث، فلما رأى ذلك أيقظ صاحبه وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما أيقظتك، ولكان ما أنا فيه شاغلا لي عما أصابني[١٣٤] . وقُطعت رِجلُ عروة بن الزبير رضي الله عنه لأكلة كانت بها وهو في صلاته، فلم يحس بها [١٣٥] "[١٣٦] . قال ابن عجيبة رحمه الله:" والذي فتحه على قلوبهم في حالة العمل ثلاث: محاضرة، أو مراقبة، أو مشاهدة، فالمحاضرة للطالبين، والمراقبة للسائرين، والمشاهدة للواصلين، فالمحاضرة للعموم، والمراقبة للخصوص، والمشاهدة لخصوص الخصوص، والكل يسمى خشوعاً. وقال بعضهم: الخشوع إطراق السر على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والاِمِّحاء عند غلبات التجلي، ويختص المقام الثالث بقرة العين" [١٣٧]، وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: ما يجده في حالة الطاعة ثلاث: أولها: وجود الأنس به فيها بروح إقباله، ومنه ما يقع من الرقة والخشوع. والثاني: وجود التملق بين يديه، وله حلاوة ينسى بها كل شيء. والثالث: حصول الفهم والفوائد العلمية، والإلهامات اللَّدُنِّية التي بها يترك كل شيء. قال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة، ولا إلى شيء ولم يستوحش أبداً، قيل: ما هي:

---

(١٣٢) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢٢٩-٢٣٠. وانظر : شرح الشيخ زروق ص ١٣٧.

(١٣٣) المراجع السابقة نفسها .

(١٣٤) سنن أبي داود ت الأرنؤوط (١/ ١٤١)١٩٧، قال الشيخ الأرناؤوط: حديث حسن .

(١٣٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، ت ٤٣٠هـ) دار السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م ، (٢/ ١٧٨) .

(١٣٦) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ١٣٨ .

(١٣٧) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢٢٩-٢٣٠. وانظر : شرح الشيخ زروق ص ١٣٨

قال معرفة الله. وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا ما يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة . وكان بعضهم يقول: التملق للحبيب والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا، هو من الجنة أظهره الله في الدنيا لا يعرفه إلا هم، ولا يجده سواهم روحاً لقلوبهم "[١٣٨].

ومنها: ما يجده من الثمرات بعد عملها وهو الذي أشار إليه بقوله: (وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته) [١٣٩]. وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:" كفى العاملين ما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته – أي في طاعته– بطاعته وما يجري منها لهم في حال التلبس بها، وبعد ذلك من تآنسهم به وبما منه وإليه، وما يصلهم به من الإمدادات العرفانية والمواريد العلمية والإيمانية، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾ [مريم: ٩٦] قيل: يعني فيما بينهم وبينه، وقيل فيما بينهم وبين عباده، وقد يريد الجميع، وهو صحيح مليح يؤيده حديث: إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني أحب فلاناً، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، ثم يُوضع له القبول في الأرض، وهو صحيح مشهور [١٤٠]، وإلى معناه أشار عطاءُ رحمه الله حين أوصى مالكَ بن أنس رضي الله عنه إذ قال: أطع الله يحبك الناس وإن كرهوا [١٤١] ، وقال علي كرم الله وجهه: من أراد الغنى بغير مال، والعز بغير عشيرة، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وأنشد في ذلك :

إن عرفان ذي الجلال لعزٌّ وبهاء وبهجة وسرور
وعلى العارفين منه بهاء وعليهم من المحبة نور
فهنيئاً لعارف بك ربي هو والله دهره مسرور

خامساً – أزل الأغيار لتشرق الأنوار :

على العبد أن يتفقد قلبه دائماً، ويحاسب نفسه، ويراقب نيته، فالنية هي البوصلة التي تحتاج دائماً إلى إعادة ضبط وتدقيق، وهو معنى قول ابن عطاء الله رحمه الله:" لا تستبطئ النوال، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال" وقال الشيخ زروق رحمه الله تعالى: "وذلك لأن الإقبال هو بساط النوال، ومن أتى باب الكريم بالأدب جدير بتحصيل المقصد والأرب، لأنه قد أتى الأمر من بابه، وتوسل له بوجود أسبابه، ومن كان على العكس كان جديراً بالحرمان، فيرحم الله من قال :

---

(١٣٨) المراجع السابقة نفسها . كلام الشيخ زروق نقله ابن عجيبة وهو موجود في المصدر المشار إليه للشيخ زروق لكنه ليس بالنص بل بالمعنى .

(١٣٩) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٢٢٩–٢٣٠. وانظر : شرح الشيخ زروق ص ١٣٨.

(١٤٠) صحيح البخاري (٤/ ١١١)٣٢٠٩ .

(١٤١) مسند الموطأ للجوهري، (أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ، الجَوْهَرِيُّ المالكي، ت: ٣٨١هـ)تحقيق: لطفي بن محمد الصغير، طه بن علي بُو سريح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧ م، (ص: ٣٠٩) الأثر عن مَالِكٌ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ كَانَ يَقُولُ: «ابْنَ آدَمَ اتَّقِ اللَّهَ يُحِبَّكَ النَّاسُ وَإِنْ كَرِهُوا».

وما رمتُ الدخولَ عليه حتى حَللتُ مَحِلَّةَ العبدِ الذليلِ
وأغمضتُ الجفونَ على قذاها وصنتُ النفسَ عن قالٍ وقيلِ [١٤٢] "

وقال ابن عجيبة رحمه الله:" الحق سبحانه جواد كريم حليم رحيم،((من تقرب إليه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة)) [١٤٣] فإن توجهت إليه بقلبك ثم تأخر الفتح من قِبَله، فلا تستبطئ منه النوال، أي العطاء وهو كشف الحجاب، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال، فلعل إقبالك عليه لم يكن بكليتك ... وأما لو زالت أغيارك لأشرقت أنوارك، ولو تَطَهَّرتَ من جنابة الغفلة، لاستحققت الدخول إلى مسجد الحضرة، وقد يكمل إقبالك، ويفوتك الأدب مع سيدك، وهو استبطاؤك النوال ولو صح منك الإقبال ".[١٤٤].

سادساً – دعاء الحال أفضل من دعاء المقال :

قال الإمام القشيري رحمه الله: " قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى:" أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال". [١٤٥] أي أن يكون حاضر القلب، وأن لا يكون ساهياً، فقد رُويَ عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عبد من قلبٍ لاه)). [١٤٦] ومن شرائطه أن يكون مطعمه حلالاً، فلقد قال صلى الله عليه وسلم لسعد: ((أَطِبْ مَطْعَمَكَ تُسْتَجَبْ دعوتُك)) [١٤٧] وقد قيل: الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانها لُقَمُ الحلال [١٤٨]. وكان يحيى بن معاذ يقول: كيف أدعوك وأنا عاص؟! وكيف لا أدعوك وأنت كريم؟!، سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ظهر بيعقوب بن الليث علةٌ أعيت الأطباء، فقالوا له: في ولايتك رجل صالح يسمى سهل بن عبد الله التستري لو دعا لك لعل

---

(١٤٢) حكم ابن عطاء الله – شرح الشيخ زروق رحمه الله تعالى ص ٢٣٨.

(١٤٣) صحيح البخاري (٩/ ١٢١)٧٤٠٥.

(١٤٤) إيقاظ الهمم ابن عجيبة ٤٤٣.

(١٤٥) الرسالة القشيرية ٢٩٦.

(١٤٦) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥١٧) ٣٤٧٩. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ» قال الترمذي رحمه الله: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ»، ومستدرك الحاكم (٢/ ١٢٦) رقم: ١٨١٧ وقال الحاكم: هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد أهل البصرة ولم يخرجاه، وقال الألباني في تعليقاته على الترمذي: حسن. ويُنظر: الدعاء ، للطبراني، ج١ ص ٣٩ ، رقم الحديث: ٦٢، باب الأمر بالإخلاص في الدعاء .

(١٤٧) ينظر: المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م، بدون بيانات أخرى . (٦/ ٣١٠)٦٤٩٥، وقال الهيثمي : رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ، وفيه من لم أعرفهم، يُنظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)تحقيق : حسام الدين القدس، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م ، (١٠/ ٢٩١)١٨١٠١ ، . وقال الألباني: ضعيف جداً، يُنظر: ضَعِيفُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، محمد ناصر الدّين الألباني، مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م .

(١٤٨) الرسالة القشيرية ٢٩٩.

الله سبحانه يستجيب له، فاستحضر سهلاً، وقال: ادع الله عز وجل لي، فقال سهل: كيف يستجاب دعائي فيك وفي محبسك مظلومون؟! فأطلقَ كل من كان في محبسه، فقال سهل: اللهم كما أريته ذلَّ المعصية، فأره عزَّ الطاعة، وفرَّج عنه، فعوفي، فعرض على سهل مالاً فأبى أن يقبله، فقيل له: لو قبلتَه ودفعته إلى الفقراء، فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال لأصحابه: من يُعطى مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث ؟! "[١٤٩]." وقيل: كان صالح المرّي يقول كثيراً: من أدمن قرعَ بابٍ يوشك أن يُفتح له. فقالت له رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أُغلق هذا الباب حتى يُستفتَح ؟! فقال صالح: شيخ جهل، وامرأة علمت. [١٥٠] وحُكي عن الليث أنه قال: رأيت عقبة بن نافع ضريراً، ثم رأيته بصيراً، فقلت له بم رُدَّ عليك بصرك ؟ فقال: أُتيتُ في منامي فقيل قل: ياقريب، يامجيب، ياسميع الدعاء، يالطيفاً لما يشاء رد عليَّ بصري، فقلتها فرد الله عز وجل علي بصري. وقيل: تعلق شاب بأستار الكعبة، وقال: إلهي لا شريك لك فيُؤتى، ولا وزير لك فيُرشى، إن أطعتُك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتُك فبجهلي ولك الحجة عليّ، فبإثبات حجتك عليّ، وانقطاع حجتي لديك إلا غفرت لي، فسمع هاتفاً يقول: الفتى عتيق من النار. وقيل فائدة الدعاء: إظهار الفاقة بين يديه تعالى، وإلا فالرب يفعل ما يشاء. وقيل دعاء العامة بالأقوال، ودعاء الزهاد بالأفعال، ودعاء العارفين بالأحوال. وقيل: خير الدعاء ما هيَّجَتْه الأحزان. وقال بعضهم: إذا سألت الله تعالى حاجة فَتَسَهَّلَت، فاسأل الله عقب ذلك الجنة، فلعل ذلك يوم إجابتك. وقيل: ألسنة المبتدئين منطلقة بالدعاء، وألسنة المتحققين خرست عن ذلك".[١٥١].

---

(١٤٩) **الرسالة القشيرية ٢٩٩.**

(١٥٠) **السابق نفسه.**

(١٥١) **الرسالة القشيرية ٣٠٠.**

الخاتمة

وهكذا نجد أن الصوفية يسلكون طريقاً مريحاً للعقل والقلب في تعاملهم مع ربهم عز وجل وينعكس ذلك راحة وطمأنينة في تعاملهم مع الكون والحياة، ويتجلى ذلك في قضية الدعاء التي أثار المشككون حولها غباراً من الشبهات والاعتراضات التي تتصل بالدعاء بشكل خاص وبالإيمان بشكل عام . ويمكن إيجاز الموقف الصوفي من الدعاء بما يلي :

أولاً – إن القضية المركزية في الفكر الصوفي هي معرفة الهوية الحقيقية للإنسان وعلاقتها بالله جل وعلا ومن ثم علاقتها بالوجود، والمعرفة المطلوبة ليست مجرد معرفة نظرية عقلية، بل معرفة قائمة على الانفعال، والتحقق والتجربة والمعايشة، وما يمكن أن نسميه حقيقة الإيمان، التي يُوصَل إليها عند القوم ضمن مراتب الترقي من علم اليقين إلى حق اليقين إلى عين اليقين .

ثانياً — إن الدعاء وظيفة من وظائف العبودية، والإنسان يمارسه بمحض وصفه العبودي، وليس من حقه طبقاً لهويته هذه أن يعترض لا قولاً ولا فعلاً ولا حالاً، ولا حتى في خطرات النفس، بل عليه أن يقاومها ويتصدى لها، لأن الله عز وجل علاَّم الغيوب، وهو مالك الملك، وبيده مقاليد السماوات والأرض.

فالدعاء تعبير محض لإظهار الإنسان عبوديتَه واضطرارَه لربه جل وعلا، وهو عبادةٌ يثاب الإنسان عليها وهو مجابٌ قطعاً، إما في الدنيا وإما في الآخرة، فالإجابة مضمونة بشرط أن لا يَعجلَ الإنسانُ أو ييأس، وعليه أن يعالج شكوكَه بالإيمان واليقين والعبادة والذكر وليس بالفكر فقط .

ثالثاً – والمنع والعطاء عند الله عز وجل خاضع للحكمة الإلهية، فقد يكون المنعُ عطاءً، وقد يكون العطاءُ منعاً، وهو ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾، ولذا فأساس الراحة للعقل والقلب في المنظور الصوفي هو الفهم عن الله جل وعلا، فمتى فهم المكلَّف معاني العطاء والمنع اطمان قلبه وارتاح عقله، وإنما يتألم لعدم فهمه عن الله عز وجل، كما عليه يلاحظ عطاءات الباري عزَّ وجلَّ الكثيرةَ المغدَقَة عليه، والتي لا يتذكرها إلا في حال فقدانها فقط.

وعليه أن يعلم أن العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله عز وجل تَفَضُّلٌ وإحسان، وما دام الإنسان في هذه الحياة فلا بد أن يتعرض لأشكال مختلفة من البلاء، فيرى الجمالَ والبرَّ في العطاء، والجلال والقهر في المنع، وهنا تظهرُ رجولةُ العبد أو طفولتُه، فما ينبغي أن يكون رجلاً فقط في حال الرخاء، فالله عز وجل يريد عباده ليكونوا رجالاً عند الشدائد والبلاء .

وعلى الإنسان أن يعلم أنه متى ما أَطلقَ اللهُ عز وجل لسانَه بالدعاء فليعلم أنه يريد أن يعطيه ويكرمه، ولذلك أفضل ما تطلبه من الله عز وجل ما هو طالبه منك من العبادة والتقوى .

رابعاً – كما أن العلاقة مع الله عز وجل ليست محصورة في هذه الحياة الدنيا حتى يعترض العبد على عدم إجابة دعائه أو ما ينزل به من بلاء، لأن الدنيا مرحلة من مراحل الحياة الثلاث: الدنيا والبرزخ

والآخرة، والدنيا هي أقصرها، وهي ليست مخصصة للجزاء بل للامتحان، والمنطلق الأساسي في فهم ذلك هو التكليف المُضمَّن في قوله تعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة .. ﴾ وهذه الأمانة في النظر الصوفي إذا تحملها الإنسان لوحده فهي ثقيلة وشاقة، ولكنه باستعانته بالله عز وجل، والتجائه إليه تصبح سهلة ويسيرة.

خامساً – إلا أنه في كل الأحوال لا بد من الهمة والعمل، والجد على المستوى العملي العبادي، وعلى المستوى القلبي في مجاهدة الشبهات، وتخليص النوايا والمقاصد، فلا راحة لمؤمن في هذه الدنيا، لأن الإنسان في هذه الدنيا في معركة مستمرة مع الشيطان لا تنتهي إلا بخروج الروح، وبالتالي فلا بد من المجاهدة ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فمن جهة العمل لا بد من الجِدِّ وشَدِّ المئزر، لأن الدعاء بلا عمل كالرمي بلا وتر. ومن جهة القلب ما ينبغي الركون لحال السرور والفرح، بل لا بد أن يبقى القلبُ معلقاً بين الخوف والرجاء.

سادساً – وللدعاء آدابٌ لا بد أن يلتزم بها الداعي معروفةٌ ذكرها الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار، إلا أن الصوفية يركزون على الآداب الجوَّانية القلبية مثل الرضا والتسليم والتفويض المطلق لله عز وجل، والدعاء بالحضور والاضطرار والافتقار، وأن يكون الدعاء عبودية لله عز وجل، وليس فقط لتحصيل الأغراض والمصالح، ومنطلق ذلك الثقة المطلقة بالله عز وجل، لأن الله كريم والكريم لا تتخطاه الآمال، وعلى العبد أن يزيل من قلبه الأغيار لتشرق فيه الأنوار . كما أن دعاء الحال أفضل من دعاء المقال، ومعنى ذلك أن يكون القلب حاضراً أثناء الدعاء ومتبتلاً وخاشعاً، فالباري لا يستجيب الدعاء من قلب لاهٍ.

سابعاً – أما أيهما أفضل السكوت أم الدعاء؟ فالصوفية يرون أن هذا راجع لحال الداعي، فأحياناً يكون الطلب أفضل، وأحياناً يكون السكوت أفضل، والراجح أن الدعاء أفضل مطلقاً وعليه الجمهور.

والله أعلم .

وأوصي إخواني الباحثين بمزيد من العناية بالتراث الصوفي ففيه من الكنوز التربوية والأخلاقية العملية الشيء الكثير الذي نحن بحاجة ماسة إليه، بل العالم والإنسانية جمعاء اليوم بأمس الحاجة إليه في هذا العصر الذي طغت فيه الجوانب المادية، والأفكار الشكية والعدمية، ونحن بحاجة إلى مواجهة ذلك بتعزيز الجانب الأخلاقي في الإنسان، وتنمية المطالب الروحية، ومعالجة الأمراض النفسية والقلبية، وليس من سبيل إلى ذلك أفضل من الإيمان، وليس أولى من ذلك من الإحسان الذي يكمن في عمق تراثنا وفكرنا الصوفي الجليل.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ)، تحقيق د. ناصر بن عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض، ط٣/١٤١٣هـ- ١٩٩٣ م .

- إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني (ت: ١٢٢٤ هـ) ، تقديم ومراجعة : محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة د.ت، د.ط .

- بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، (أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي ت: ٣٨٠هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

- تاريخ الخلفاء للسيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ت: ٩١١هـ)،تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

- التنوير في إسقاط التدبير (أحمد بن عطاء الله السكندري ت : ٧٠٩ هـ) القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ط١، ٢٠٠٧ م .

- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ت: ١٠٦٩هـ) ، دار صادر - بيروت .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني ت: ٤٣٠هـ) القاهرة، دار السعادة،بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ثم صورتها عدة دور منها ١ - دار الكتاب العربي، بيروت ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق).

- دلائل النبوة، (الإمام البيهقي ت: ٤٥٨ هـ)، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: الدكتور / عبد المعطى قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية. ودار الريان للتراث،ط١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

- الرسالة القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت:٤٦٥)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م وضع حواشيه: خليل المنصور، د.ط .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق : على عبد البارى عطية، دار الكتب العلمية. بيروت ، سنة الطبع: ١٤١٥ هـ .

- رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين(أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ت: ٦٧٦ هـ) ، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م .

- سنن البيهقي الكبرى (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ت:)، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م، تحقيق : محمد عبد القادر عطا .

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي أبو عيسى (ت: ٢٧٩ هـ)، تحقيق : أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عطوة، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ط٢/ ١٩٧٥ م - ١٣٩٥ هـ .

- سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني (ت: ٢٧٣ هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ت، د. ط .

- شرح العقيدة الطحاوية، (صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي ت: ٧٩٢هـ) تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني ، القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر التوزيع والترجمة، الطبعة المصرية الأولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م .

- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣م.

- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦ هـ)، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، دار طوق الحمامة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا، ط١/٢٠٠١ م– ١٤٢٢ هـ.

- صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري(ت: ٢٦١ هـ]، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، لبنان، د.ت ، د.ط .

- صيد الخاطر – أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥١٠ – ٥٩٧ هـ)، تحقيق حسن السماحي سويدان، دار القلم، دمشق،ط٢/١٤٣٠هـ ٢٠٠٩ م .

- عون المريد لشرح جوهرة التوحيد، عبد الكريم تتان، محمد أديب الكيلاني، دار البشائر، دمشق، ١٤٩١ هـ ١٩٩٩م. ط ٢.

- لطائف المنن، ابن عطاء الله السكندري(ت: ٧٠٩هـ)،اعتنى به الدكتور عبد الحليم محمود،دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ت: ٨٠٧هـ)تحقيق : حسام الدين القدس، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م .

- محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ .

- محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، دمنهور، مصر، طبعة تجريبية، د.ن، د.ت.

- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الطهاني النيسابوري (ت: ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٩٩٠م – ١٤١١هـ).

- مسند الموطأ للجوهري، (أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ، الجَوْهَرِيُّ المالكي، ت: ٣٨١هـ)تحقيق: لطفي بن محمد الصغير، طه بن علي بُو سريح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧ م.

- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م، بدون بيانات أخرى .

- المعجم الكبير (سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية ، ط٢ .

- من العقيدة إلى الثورة د. حسن حنفي ، مؤسسة هنداوي ٢٠٢٠ م ، المملكة المتحدة، د. ط .

- المنقذ من الضلال، الإمام الغزالي ، تحقيق اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج – بيروت – دار المنهاج – ط١ ، ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م ، ص ٦٨ – ٦٩.

- من النقل إلى العقل د. حسن حنفي ، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠١٤ م القاهرة، د.ط .

- يكذبون لكي يروا الإله جميلًا !، عبد الله القصيمي، دار الكاتب العربي، ط٢/٢٠٠١.